

الدبلوماسية الفرنسية للملك لويس التاسع أثناء وجوده فى جزيرة قبرص (12 أغسطس 1248م _ 22 مايو 1249م / 11 جمادى الاولى 646هـ _ 7 صفر 647هـ)

د/ جلال زنتى جلال

قسم العلوم الاجتماعية - كلية التربية - جامعة الاسكندرية

ملخص بحث:

عناصر البحث :

- 1- الإعداد للحملة (دور البابوية , دور الكونتات , موارد الحملة وأعداد القوات بها , مغادرة الحملة لفرنسا وخط سير الحملة)
- 2- وصول الحملة إلى جزيرة قبرص وأراء المؤرخين حول ذلك..
- 3- الدبلوماسية الفرنسية فى قبرص:
 - مقابلة مرقس وداود كمبعوثين من قبل المغول للملك لويس التاسع.
 - سفارة أندرو وأخيه الرسمية من قبل الملك لويس التاسع إلى المغول.
 - سفارة الراهب الفرنسيسكانى وليم روبروك ومعه بارثلميو أف كريمونا الرسمية من قبل الملك لويس التاسع إلى مونكو خان المغول.
 - وصول الإمبراطورة مارى زوجة بلدوين الثانى الإمبراطور اللاتينى بالقسطنطينية وابنة جان دى برين ملك مملكة بيت المقدس الإسمية فى عكا لطلب مساعدة الملك لويس التاسع ضد الإمبراطورية فى نيقية ورد لويس التاسع.
- 4- مغادرة الحملة جزيرة قبرص والرسو بمصر .

French diplomacy of King Louis IX during his stay on the island of Cyprus August 12, 1248 _ May 22, 1249 m / 11 646 gamady I _ 7 Safar 647 AH

Dr. Galal Zanaty Galal

Lecturer –Middle Age History - Department of Social Sciences
Faculty of Education / Alexandria University – Egypt

Elements of the subject:

- 1 - Preparation of the campaign (the role of the papacy, role of Alcomtes , campaign resources and numbers of troops, leaving the campaign to France itinerary campaign,)
- 2 - The arrival of the campaign to the island of Cyprus and historians opinions about it..
- 3 - French diplomacy in Cyprus:
 - An interview with Mark and David, by the Mongols envoys of King Louis IX.
 - Andrew Embassy official and his brother by King Louis IX to the Mongols.
 - Embassy of the Franciscan monk William Robrok and with him Barthelmao the F-official Cremona by King Louis IX to Mongke Khan Mongols.
 - The arrival of the Empress Marie wife of Baldwin II Latin Emperor of Constantinople and the daughter of Jean de Brin King of the Kingdom of Jerusalem in nominal Acre to seek the help of King Louis IX against the Empire of Nicaea Lord Louis IX.
- 4 - to leave the island of Cyprus campaign and berthing in Egypt.

مقدمة

تتركز الدراسة هنا حول الدبلوماسية الفرنسية للملك لويس التاسع أثناء وجوده في جزيرة قبرص

12 أغسطس 1248م _ 22 مايو 1249م/ 11 جمادى الأولى 646هـ _ 7 صفر 647هـ وهي فترة الثمانية أشهر وعشرة أيام التي قضاها الملك الفرنسي في جزيرة قبرص قبل قدومه بحملته إلى مصر , وتعد الأهمية لهذه الدراسة أن المؤرخين لا يهتمون بدراسة هذه الفترة في كتاباتهم على الرغم من أنها فترة غنية بالأحداث التاريخية ولا نجد لها تفاصيل سوى في المصادر الصليبية المعاصرة وخاصة المؤرخ جوفنيل أو القريية من تلك الفترة الزمنية موضوع البحث.

وبالنسبة لمنهج الدراسة المتبع في الدراسة فهو يقوم على الإعتماد على المصادر المعاصرة للأحداث ثم المصادر القريية زمنيا للأحداث ثم المصادر المتأخرة زمنيا , أما المراجع فسيتم الأعتداع عليها في حالة عرض رأي أو فكرة , أما المصادر العربية فلم تهتم كثيرا بالفترة موضوع الدراسة واكتفت بسرد أحداث الحملة الصليبية في مصر على وجه التحديد.

وقد إقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى عدة نقاط وهي:

1- الإعداد للحملة (دور البابوية , دور الكونتات , موارد الحملة وأعداد القوات بها , مغادرة الحملة لفرنسا وخط سير الحملة).

2- وصول الحملة إلى جزيرة قبرص وأراء المؤرخين حول ذلك.

3- الدبلوماسية الفرنسية في قبرص:

- مقابلة مرقس وداود كمبعوثين من قبل المغول للملك لويس التاسع.
- سفارة أندرو وأخيه الرسمية من قبل الملك لويس التاسع إلى المغول.
- سفارة الراهب الفرنسيكاني ولیم روبروك ومعه بارثلميو أف كريمونا الرسمية من قبل الملك لويس التاسع إلى مونكو خان المغول.
- وصول الإمبراطورة ماري زوجة بلدوين الثاني (1261-1228م/625-659هـ) الإمبراطور اللاتيني بالقسطنطينية وابنة جان دي برين ملك مملكة بيت المقدس الإسمية في عكا لطلب مساعدة الملك لويس التاسع ضد الإمبراطورية في نيقية ورد لويس التاسع.
- 4- مغادرة الحملة جزيرة قبرص والرسو بمصر.

ومن الجدير بالذكر أن الدبلوماسية الفرنسية للملك الفرنسي لويس التاسع (1226-1270م/623-669هـ) لم تكن موجودة قبل ذهابه في قبرص في حملته إلى الشرق إذ لم تؤكد المصادر وجود مثل هذه العلاقات او الاتصالات السياسية مع أطراف هذه الدراسة وإنما الصدفة هي التي اوجدت تلك العلاقات وهو الامر الذي لم يكن في حساب الملك الفرنسي , الذي حينما وجد مرقس وداود كمبعوثين من قبل الخان أم لا فانهم سوف يساعده في تقريب وجهتي نظر الخان والملك الفرنسي الذي كان يخشى من المغول خاصة بعد المذابح التي إرتكبوها في شرق أوربا والتي تركت صداها في القارة الاوربية وجعلت ملوك أوربا يخشون على عروشهم أكثر من خشيتهم على حياتهم.

وعن أهم مصادر هذه الدراسة - بعد الانتهاء من هذا البحث ووفقا لما تم الاستفادة منه في تلك المصادر , فقد إعتمدت على المصادر الاجنبية والعربية سواء المعاصرة للأحداث أو القريية منها زمنيا أو المتأخرة زمنيا. وبالنسبة للمصادر الاجنبية فأهمها كتاب جوفنيل Jean Sier de Joinville (1224-1318م) فقد كان جوفنيل أحد فرسان هذه الحملة وشاهد عيان لها , كما كان موضع ثقة الملك الفرنسي حتى أنه كثيرا ما كان يستشيريه في شئون الحملة وفي أموره الخاصة أيضا. ويعتبر جوفنيل ثقة في تاريخ تلك الفترة فقد عرف بالدقة والصدق فيما يكتب , ولعل أبلغ دليل على ذلك أنه عندما كان يتعرض لواقعة لم يشترك فيها بنفسه , فانه كان يحرض على تقييد اسم الشخص الذي رواها عنه , فكتابه يعد تسجيلا لحياة الملك لويس التاسع , على الرغم من أن جوفنيل لم يكن ينوي أن يسجل أحداث الحملة الصليبية السابعة بل كان في أول الامر يروي ذكرياته عن الحملة ولا يكتبها إلا بعد أن طلبت منه جين دي نافار Jeanne de Navarre ملكة شامانيا وزوجة فيليب الرابع المعروف بفيليب الجميل أن يسجل هذه الاقاصيص في كتاب عن أقوال القديس لويس التاسع تخليدا لذكراه ولكن الملكة جين ماتت في 2 أبريل عام 1305م أثناء كتابته مذكراته , فأهدى جوفنيل كتابه بعد فراغه منه إلى ابنها لويس العاشر في عام 1309م , وهو ملك نافار وكونت شامانيا والذي أصبح فيما بعد ملكا على فرنسا بوفاة أبيه فيليب الجميل في عام 1314م. , وفيما يخص البحث فقد أسهب جوفنيل في الحديث عن الفترة التي قضاها الملك لويس التاسع في قبرص, وانفرد بذكر بعض الاحداث ومن ذلك زيارة امبراطورة القسطنطينية زوجة بلدوين الثاني حاكم عكا وإمبراطور القسطنطينية اللاتيني للجزيرة وطلبها مساعدة الملك الفرنسي لتعزيد مكانة زوجها في القسطنطينية ولكن الملك الفرنسي لم يستجب لها , كما أورد بعض التفاصيل حول سفراء المغول إلى الملك لويس التاسع وهو في قبرص , ولكن ما يعاب على جوفنيل

الاستطرداد في كثير من الاحيان, كما إنفرد بذكر تفاصيل رحلة الحملة إلى جزيرة قبرص وخط سيرها والاطار التي تعرضوا لها أثناء ذلك وكذلك تفاصيل سفارة الملك لويس التاسع إلى خان المغول وهي بعثة التي تكونت من ثلاثة أفراد من جماعة الرهبان الدومنيكان هم اندريه Andréé ووليم دي لو لونجمو Guill. de longjumeau ويوحنا الكركسوني Jean de Carcassonne. كما إنفرد جوانفيل بالذكر أن الملك الفرنسي لويس التاسع قد ندم في النهاية على إرساله السفارات إلى المغول بسبب سوء إستقبال المغول لتلك السفارات.

ويلى كتاب جوانفيل في الاهمية تاريخ روثلان Rothelin وقد إشتراك هو الاخر في الحملة على مصر وتاريخ روثلان عبارة عن تنمة لتاريخ وليم الصوري Guillaume de Tyre فيما بين سنة 1229-1261م ويتناول تاريخ روثلان الحديث عن تلك الفترة بشيء من الإفاضة كزميله جوانفيل ولكنه أقل منه دقة , وينفرد بذكر بعض الاحداث مثل تخصيص الكنائس الفرنسية 10/1 من إيرادها مشاركة في إعداد الحملة, كما أسهب في الحديث عن السفارات المتبادلة بين المغول وبين الملك لويس التاسع ولكن بشيء من التفصيل مقارنة بزميله جوانفيل, ولكنه أوجز في الحديث عن فترة الإعداد للحملة. بينما إنفرد روثلان بذكر بعض الأشياء التي لم ترد لدى جوانفيل حول سفارة مرقس وداود المرسله من المغول إلى الملك لويس التاسع وهي أن نائب الخان كان مسيحيا (ونرجح أنه كان مسيحي نسطوري وذلك لسيادة هذا المذهب في تلك الجهات) وكذلك أن السفارة كانت في شهر ديسمبر بقوله " حدث أن أرسل أحد كبار أمراء المغول المسمى والذي كان مسيحيا رسله إلى ملك فرنسا في نيقوسيا بقبرص وذلك قبل عيد الميلاد (وهو يوافق 25 ديسمبر لدى الطائفة الأرثوذكسية).

كذلك ممن إعتد عليهم أصحاب الحوليات القدامى الراهب الإنجليزي متى الباريسي Mathew Paris بمقتطفات حول تاريخ إنجلترا Historia Anglorum وقد عاصر هذا الراهب أحداث الحملة غير أنه لم يشترك فيها ووضع تاريخه بناء على طلب هنري الثالث ملك إنجلترا نفسه وبيد التاريخ من سنة 1235م ويستمر إلى سنة 1259م وهي السنة التي مات فيها المؤلف وقد جاء من أكمل هذا التاريخ إلى سنة 1273م , وقد كان يدون تاريخ الحملة دون أن يراها أو يشارك فيها لذا يجب علينا التحفظ في ما يذكره من معلومات ومثال ذلك حول ما ذكره حول تسميم المسلمين للورق الذي يصدر لأوربا حينما علموا بأمر تلك الحملة مما تسبب في وفاة الكثيرين (إن جاز لنا أن نصدق هذه الرواية), رغم أنها كانت بسبب الطاعون الذي أصاب جنود الحملة أو محاولة تسميم الملك لويس التاسع من قبل بعض التجار المسلمين كما يذكر جوانفيل , ولا يختلف كثيرا عما يذكره جوانفيل حول أحداث الحملة , كما إنفرد متى الباريسي بذكر قيام إشتباكات بين قوات الحملة الصليبية السابعة وبين سكان أفنيون وأن الملك الفرنسي أمر بوقف تلك المشاحنات وعلى الرغم من ذلك يعد متى الباريسي من أقل المصادر في الحديث حول الفترة الخاصة بالإعداد للحملة السابعة أما حديثه عن أحداثها في قبرص وفي مصر فيقوم بعرضه هذا المؤرخ على سبيل الإستطرداد.

ومن المصادر الأخرى التي تناولت الكلام عن الحملة كتاب " فضائل القديس لويس و أعماله" لوليم دي نانجي Guillaume de Nangis أحد رهبان دير القديس دنيس بفرنسا والذي أهداه إلى الملك الفرنسي فيليب الجميل (1285-1314م) , وقد تميز هذا المؤلف بالحديث عن مقدمات الحملة ومدة إقامتها في قبرص قبل الرحيل شطر مصر , خاصة وأن دي نانجي قد عرض الحملتين اللتين قام بهما لويس , لكنه يؤخذ عليه إهتمامه بتصوير تقوى الملك ومآثره دون العناية بدقائق الحملة وتفصيلها لعل أهم حادثة انفرد بذكرها المؤرخ وليم دي نانجي , هي حادثة وقعت في فترة بقاء الملك لويس التاسع في قبرص إذ ذكر أن الصليبيين ألقوا القبض على بعض الأشخاص كان قد أرسلهم سلطان مصر الصالح أيوب لدس السم للويس التاسع وقواد جيشه حتى يتخلص منهم). وان عدم تعرض باقي مصادر الحملة , شرقية كانت أم غربية , إلى هذه الحادثة الخطيرة يدفعنا إلى الشك في صحتها. ولو كانت هذه المؤامرة قد دبرت فعلا , لوجدنا الصليبيين الذين اشتركوا في الحملة وكتبوا عنها , أمثال جوانفيل وجوفرواي دي بلييه والملك لويس نفسه , يبالغون في وصفها ويهولون من أمرها ويجعلونها تدخلا من الرب لإنقاذ الملك لويس.

يضاف إل تلك المصادر بعض الخطابات التي كتبها بعض الصليبيين الذين إشتراكوا في الحملة والتي يدور أغلبها حول إستيلاء الصليبيين على دمياط مثل خطاب الفارس جاي دي ميلان Guy The Knight إلى أحد طلاب العلم بباريس حول الإستيلاء على دمياط الذي ذكر فيه أمر التداول حول مهاجمة الإسكندرية أو دمياط ونياً معرفة المصريين بمجيء الحملة , ولكن هذا الخطاب إنفرد عن باقي مصادر الحملة بذكر ضرب المسلمين الصليبيين عند قدومهم بالنار الإغريقية وإرتداد النار على المسلمين وإعتبار الصليبيين هذا الامر معجزة , كما إنفرد أيضا بشأن إرسال فخر الدين بن شيخ الشيوخ أربعة سفن لإستطلاع القوات الصليبية. ومن هذه الخطابات أيضا خطاب الملك الفرنسي لويس التاسع إلى الشعب الفرنسي وهو في عكا في أغسطس عام 1250م حول تفسيره لأسباب فشل الحملة وما تعرضت له قوات هذا الملك من أخطار ومصاعب وهم في مصر.

وعن المصادر العربية فقد إعتد على ابن واصل المتوفى سنة 697هـ/1298م والمعاصر لأحداث هذه الحملة صاحب كتاب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" خاصة الجزء الخامس المتعلق بأخبار الفترة 629-645هـ/1231-1248م حيث أسهب في ذكر عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب "643-647هـ/1245-1249م" وكيف إستعد لملاقاة تلك القوات الصليبية وقام بتحصيل مدن الإسكندرية ودمياط والقاهرة وشحنها بالعاسكر وأنه كان بدمشق وعاد وهو محمولا على محفة من شدة المرض. غير أنه لم يقدم شيئا يذكر حول الحملة الصليبية في قبرص.

ويلى كتاب ابن واصل المقرئ المتوفى سنة 845هـ/1442م الذي نقل عن ابن واصل عن مفرج الكروب فقد ذكر المقرئ في كتابه السلوك ما دار لدى الجانب الإسلامي من أحداث للحملة كتاب ابن كما أورد محقق الكتاب النصوص كما في

كتاب ابن واصل ووضعها في هوامش الكتاب , وأورد المقرئى أحداث الحملة أيضا في كتابه " المواعظ والإعتبار " ولكن بشيء من التفصيل ولعل مرد ذلك أنه ربما نقل عن مصادر أخرى لم تصل إلينا , وفي كتابه " الخطط " وهو الجزء الأخير من المواعظ والإعتبار أورد أهم المناصب في الدولة الأيوبية كما أن الأبناء الخاصة بحركة لويس التاسع تصل الى الملك الصالح نجم الدين من جانب الإمبراطور فريدريك الثاني(1212-1250م/608-648هـ) حسبما جاء في بعض المراجع العربية . فقد ذكر المقرئى بعض التفاصيل حول الموقف في الدولة الأيوبية من الحملة وهي في جزيرة قبرص وكذلك موقف الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني ومن ذلك أنه أورد أن الإمبراطور فريدريك الذي كان مصافيا للصالح أيوب كما كان مصافيا للملك الكامل محمد من قبله , بعث برسول متكرر في زى تاجر الى نجم الدين وهو بدمشق وعساكره على حصار حمص يخبره بأن لويس التاسع عازم على المسير بجحافل الجرارة الى ارض مصر لامتلاكها . على الرغم من أن المؤرخ ابن أبيك ت722هـ/1331م في كتابه "كنز الدرر" كان أكثر دقة من المقرئى في هذا الشأن , حيث ذكر " أن فريدريك هذا بعث برسالة الى السلطان , يعرفه بوصول الفرنسيين إليه وهو طالب لثغر دمياط , وهذا الفرنسيين يسمى الريد أفرنس . ثم قال الانبرور (الإمبراطور فريدريك) في كتابة للسلطان أنه وصل في خلق كثير وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على رده عن مقصده وخوفته فلم يرجع لقولى , فكن منه على حذر .."

وبلى المقرئى ابن خلدون المتوفى سنة 808هـ/1398م في كتابه العبر , الجزء الخامس ولكنه ذكر صفحتين فقط عن الحملة الصليبية السابعة وبها تفصيل عن تسمية ملك فرنسا ومختصر لتلك الحملة الصليبية , وكذلك فعل ابن تغرى بردى المتوفى سنة 874هـ/1471م في كتابه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة , الجزء السادس والذي نقل عن المصادر السابقة دون إضافة أو حذف , وكذلك فعل العيني المتوفى سنة 855هـ/1451م في كتابه " عقد الجمان " .

أما عن الدراسات السابقة فجميعها ركزت على أحداث الحملة الصليبية السابعة في مصر وليس الفترة التي قضتها الحملة في قبرص وبالنسبة للدراسات الأجنبية فاهمها كتاب هنرى بورديو الذي ظهر فى عام 1949م , عن حياة القديس لويس ولكنه يغلب عليه الطابع الروائى , وعن الدراسات العربية فلا توجد فى المكتبة العربية سوى الدراسة التي قام بها الدكتور نسيم يوسف حول الحملة الصليبية السابعة , العدوان الصليبي على مصر , هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور , ولكنه ركز هو الآخر على أحداث الحملة ومر سريعا على الفترة التي قضتها الحملة فى قبرص , أما الدكتور فايز نجيب اسكندر فى دراسته حول "فن الحرب والقتال الصليبيين والمسلمين فى النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادى النصف الاول من القرن السابع الهجرى فقد ركز على المعارك فى الحملتين الصليبية الخامسة والسابعة .

ولعل أهم الدراسات حول المغول وأوربا تلك الدراسة الخاصة بالأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران حول "المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس" وهي دراسة قيمة تناولت جوانب العلاقات بين تلك القوى ومدى تأثير ذلك على أحداث تلك الفترة التاريخية وما فيها من جوانب تلك العلاقات السياسية ابان فترة الصراع الصليبي الاسلامى خلال عصر الحروب الصليبية وأثر ذلك على مفهوم التوازن الدولى للمنطقة خلال تلك الفترة.

البحث

وعن دوافع الحملة الصليبية السابعة فيمكن القول أن دوافع تلك الحملة تتمثل فى الدوافع الظاهرية فقد شاعت الظروف أن تلعب الصدفة فى تلك الفترة التي كان فيها الشرق اللاتينى يعانى الأمرين , دورا لم يكن متوقعا وتساهم فى إخراج فكرة الحملة إلى حيز التنفيذ. ذلك أن الملك الفرنسى لويس التاسع وقع فريسة مرض عضال⁽¹⁾ فى أواخر سنة 1244م خيف عليه منه وارجف رعاياه بموته حين انقطعت أخباره عنهم , واخذوا يبتهلون إلى الله فى الكنائس والأماكن العامة من أجله حيث يصور جوانفيل هذا الموقف بقوله " لم يلبث الملك طويلا بعد هذا الحادث (حملة الملك على ملك انجلترا) أن مرض بباريس مرضا خطيرا , وساءت حالته سوءا شديدا أشرف فيه معه على الموت , حتى أننى سمعت أن إحدى السيدات اللاتي كن يعنين به وهو على فراش المرض أرادت أن تلقى الثياب على وجهه ظنا منها انه قد قضى نحبه , غير أن هناك سيدة أخرى كانت واقفة إلى الجانب الأخر من فراشه , أبت عليها ذلك قائلة انه مازال حيا , وبينما هو ينصت إلى هذه المحاوراة بين هاتين السيدتين , إذ سرعان ما أسبغ عليه المولى ثياب الصحة والعافية , وأصبح واعيا لما حوله لأنه كان قبل ذلك مباشرة لا يستطيع النطق من شدة المرض الذى ألم به. فلما أسعفه الكلام طلب منهم أن يجلبوا له الصليب. وتعد منذ ذلك الحين بحمل الصليب والذهاب إلى الاراضى المقدسة , إيماننا منه بأن الله من عليه بالشفاء ليقوم بهذه المهمة التي كرس حياته من أجلها⁽¹⁾.

وبضيف جوانفيل أن القديس لويس حمل الصليب , وتعد القيام بحرب مقدسة لإنقاذ اللاتين بالشرق اثر رؤيا ظهرت له أثناء مرضه⁽²⁾ . ولعل تملك لويس التاسع لبعض الذخائر المقدسة مثل تاج الشوك وقطعة من خشب الصليب الحقيقى , والتي حصل عليها من جان دى برين الملك الاسمى لبيت المقدس وبلدوين الثانى إمبراطور القسطنطينية اللاتينى (1237 – 1261م) , كان له أثره غير المباشر فى قيامه بحملته الصليبية على مصر من اجل استخلاص بيت المقدس.

(1) ذكر جوانفيل أن لويس التاسع مرض أثناء وجوده فى باريس انظر : op.cit,p.191. joinville بينما لم يحدد روثلان المعاصر لتلك الحملة مكان مرض الملك. روثلان : المصدر السابق,ص137.

joinville, op.cit,p.191.

Ibid,p.191.

أما الأسباب الرئيسية فتتلخص في عدة أسباب أولها ما آلت إليه حال الاراضى المقدسة ، وما كان يعانیه اللاتين بالشرق من مضايقات خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى (النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى). ففي ربيع الآخر 626هـ/ مارس 1229م عقد الامبراطور فريدريك الثانى معاهدته المشهورة مع الكامل محمد بن العادل ملك مصر ، والتي بمقتضاها إستولى الإمبراطور الالماني على بيت المقدس ، دون قتال ، وان كان قد تعهد بعدم تحصينها أو إقامة أسوارها التي كان الملك الكامل قد أمر بدكها قبل ذلك بعامين (4). والواقع انه كان لهذه المعاهدة أهمية فائقة بالنسبة للصليبيين ، إذ فتحت لهم طريق الحج إلى بيت القدس الذى ظل مغلقا أمامهم منذ أن إسترد صلاح الدين الايوبي بيت المقدس سنة 583 هـ/ 1187م ، أى زهاء أربعين سنة ، كما إنها ثبتت أقدامهم فى ممتلكاتهم فى الشام. ولكن هذه المدينة المقدسة لم تبق طويلا بأيدي الصليبيين ، ففي عام 637هـ/ 1239م توجه إليها الملك الناصر داود صاحب الكرك بجيش كبير ، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل محمد ، فحاصرها واستولى عليها وخرّب القلعة كما خرب برج داود ، ولم يكن المسلمون قد هدموه فى المرة السابقة (3). ويذكر ابن تغرى بردى أن الفرنج قد عادوا فاستولوا على بيت المقدس ثانية من المسلمين مستغلين قيام المنازعات والدسائس بين أمراء وملوك الأسرة الأيوبية فى مصر والشام. إذ اتفق الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك الناصر داود صاحب الكرك مع الفرنج بالشام لمحاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر، وسلم إليهم مدن كبيت المقدس وطبرية وعسقلان وذلك فى عام 641هـ/ 1243م نظير ذلك (1).

ويذكر المقرئى انه نتيجة لذلك إستعان الملك الصالح نجم الدين أيوب بالجنود الخوارزمية – الذين كان قد طردهم جنكيز خان ملك المغول من شرق آسيا فى أثناء فتوحاته هناك ، والذين سبق لهم التدخل فى منازعات ملوك الدولة الأيوبية – ضد أعدائه من أمراء أسرته فى الشام. فسار الجنود الخوارزمية إليها وذلك فى عام 642هـ/ 1244م وأغاروا على بلاد الشام ، ثم نزلوا القدس واتوا فيها من الفطائع وأعمال السلب ، وبذلوها السيف فىمن كان بها من النصارى حتى " أفنوا الرجال وسبوا النساء والأطفال ، وهدموا المباني ونبشوا قبور النصارى واحرقوا جثثهم (2) . بعد ذلك توجهوا إلى مدينة غزة للانضمام إلى الجيش المصرى الذى أوفده الصالح أيوب بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى، إحدى مماليكه الاخضاء الذين كانوا معه وهو محبوس فى الكرك (3) . ويضيف روثلان خيرا حول نشوب معركة أمام غزة معركة شديدة بين جيوش دمشق والكرك وحمص والصليبيين من جهة وجيوش مصر والخوارزمية من جهة أخرى ، أسفرت عن انتصار العساكر المصرية والخوارزمية على قوات الشام والفرنج (4) ، إذ أطبق الخوارزمية على الفرنج واعملوا فيهم سيوفهم وأجهزوا على الكثيرين منهم ، ثم اسروا يقرب من ثمانمائة رجل من بينهم وليم دى شانتوف guillaume de châteauneuf (5) مقدم الاسبتارية الذى اقتيد أسيرا إلى القاهرة. ولم يسلم من الصليبيين الذين اشتركوا فى هذه المعركة الحاسمة سوى عدد ضئيل (6) . ثم اندفعت القوات الظافرة بعد إستردادها مدينة غزة صوب مدينة بيت المقدس واسترد المسلمون المدينة فى نفس العام بعد أن اعلمت فيها النهب والتدمير . وبذلك إسترد المسلمون تلك المدينة من الصليبيين (7) . وقد اقتيد أسرى الفرنج إلى القاهرة وكان دخولها "يوما مشهودا" حيث زج بهم فى غياهب السجون ، وعلقت

(4) راجع ابن واصل: مفرج الكروب ، الجزء الخامس، تحقيق محمد حسنين ربيع ومراجعة د. محمد حسنين ربيع ، دار لكتب ، القاهرة، 1977، ص332.

(3) المقرئى: السلوك ج 1 ، قسم 2 ، ص 291 .

(1) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج 6 ، ص 322.

(2) المقرئى: السلوك ، ج 1 ، قسم 2، ص 316.

(3) وهو غير ركن الدين بيبرس البندقدارى الظاهرى الذى صار فيما بعد سلطانا على مصر ، وكان اكبر من الظاهر بيبرس وأقدم منه ، وانتهى أمره بأن قبض عليه مولاة الصالح أيوب وسجنه ، ثم أعدمه وذلك لاتفاقه مع الجنود الخوارزمية ضده ، راجع المقرئى: السلوك، ج1 ، حاشية2، ص350. وكذلك ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ، ج6، ص322.

(4) روثلان: المصدر السابق، ص127.

(5) هو مقدم الاسبتارية (13 مايو 1243 – 20 فبراير 1258م) ، وكان ينوب عنه فى فترة أسره جان دى رونهيه jean de ronay (3 ابريل 1245 – 11 فبراير 1250م) الذى اشترك فى حملة لويس التاسع على مصر وقتل فى معركة المنصورة الثانية (11 فبراير 1250م) . وقد ظل رئيس الاسبتارية فى اسر المصريين إلى أن اخلى سبيل جميع الأسرى المسيحيين بمصر فى 17 أكتوبر 1250م . جوزيف نسيم :المرجع السابق ، حاشية3، ص49.

(6) لم ينج منهم سوى 26 من الاسبتارية و 36 من الداوية. راجع التفاصيل فى: روثلان: المصدر السابق، ص127.

(7) المقرئى: السلوك، ج 1 ، قسم 2، ص 318.

رؤوس قتلاهم على أبواب العاصمة⁽¹⁾. ويذكر المؤرخ لودلو أن الأنفار القلائل الذين نجوا من هذه المعركة من الفرنج ، فقد عاشوا ليقصوا على إخوانهم الكارثة التي نزلت بهم ، وليثيروا الشعور الديني بين اللاتين ضد المسلمين⁽²⁾.

وإتفق كل من روثلان والمقریزی انه لم يقف الأمر على مجرد إسترداد المسلمين لبيت المقدس من أيدي الفرنج ، وانهم عند غزاة ، وتتكيف القوات الخوارزمية بهم ، بل اخذ المسلمون في توجيه الضربات الشديدة إلى باقي ممتلكات اللاتين بسورية . ففي 645هـ / 1247م أرسل الصالح أيوب الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالعسكر إلى طبرية وعسقلان ، فنازلهما وأخذهما من الفرنج ، الأول في 7 يونيو 1247م والثانية في أكتوبر من نفس العام ، وهدم ما استجده الفرنج بهما من القلاع والحصون⁽³⁾ .

يتضح مما سبق أن نهوض لويس التاسع⁽⁴⁾ بحملته الصليبية إلى الشرق الاسلامي كان نتيجة لعدة دوافع ، فقد كانت القدس في حالة مقلقة خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري إلى أن إسترددها المسلمون وفقدوا اللاتين نهائيا في 642هـ / 1244م قبل قيام الحملة بوضع سنوات ، كما منيت غزاة بضربة قاسية على يد القوات المصرية وفئة الجنود الخوارزمية وأصيب الفرنج عندها بهزيمة ساحقة ، إذ وقعوا كلهم تقريبا ما بين قنيل وأسير ، فضلا عن ذلك فقد استرد المسلمون على بعض المدن بالشام التي كان يسيطر عليها الصليبيون ومن بينها عسقلان ، وأصبحت باقي ممتلكاتهم ومعقلهم في سورية مهددة بالخطر والضياع⁽⁵⁾ وإتفق كل من روثلان ومتى الباريسي أن الجنود الخوارزمية أنزلوا بالصليبيين في الشرق صنوفا شتى من العذاب ، واستهتروا بحرمة الكنائس ، وأشعلوا النيران في قبر المسيح . فكان كل ذلك باعثا على فزع القديس لويس بخاصة وأهل الغرب بعامه ، وسببا في آثار شعورهم وحفرهم للتأثر لما نزل الاراضي المقدسة⁽⁶⁾ . إن جاز لنا أن نصدق تلك الرواية.

على أية حال لقد حملت الهزائم التي توالى على اللاتين بالشرق إلى إيفاد الرسل إلى الغرب يستجدون به ويدعون أهله إلى حمل الصليب لنجدتهم ، بعد أن اندروهم بفقدان باقي معقل الصليبيين في الاراضي المقدسة إذا لم يتخذوا خطوات ايجابية في هذا الشأن ، ومن ذلك إرسال روبرت بطريك بيت المقدس إلى أمراء الغرب سفارة برئاسة واليرن walleran أسقف بيروت تستحثهم بالنهوض بحملة صليبية ضد المسلمين في الشرق⁽⁷⁾ . ويذكر البعض أنه بذلك نشر هؤلاء الرسل ابلغ دعاية للحرب الصليبية المنشودة بين الشعوب الأوروبية بصفة عامة وفرنسا بصفة خاصة⁽¹⁾ .

وبفصل متى الباريسي هذا الأمر حيث يذكر أنه قد حضر واليرن أسقف بيروت وألبرت دي رزاتو Albert de rezato بطريق أنطاكية اللاتينية وغيرهما من الرسل الذين وفدوا من الشرق ، المؤتمر الكنسي الذي عقد في مدينة ليون (28 يونيو - 17 يوليو 1245م) تحت رئاسة البابا انوسنت الرابع. وتناول هذا المؤتمر مسألة فلسطين ، فسرد واليرن على الموجودين ما كانت تقاسيه ارض الميعاد من ويلات ، كما قص عليهم كيف فقد الفرنج مدينة بيت المقدس وغيرها من البلاد التي كانوا يمتلكونها في الشرق ، وكيف ذهبت أعداد هائلة من صفوف أبطالهم وزهرة فرسانهم ضحية معركة غزاة سنة 1244م ، بعد ذلك قرأ راهب يدعى ارنولف Arnulph - من جماعة الرهبان الدومنيكان - على الحاضرين الخطابات التي كان يحملها معه من نبلاء فلسطين وكبار الفرنج فيها . وكانت هذه الرسائل تتضمن وصفا مسهبا للفظائع وأعمال التدمير التي اقترفتها فئة الخوارزمية في الاراضي المقدسة حتى بدأ عليهم التأثر واضحا ، وذلك حسبا ذكر متى الباريزي ، ففي مثل هذه الظروف لم يسع البابا انوسنت الرابع الذي كان يتأسر هذا المؤتمر إلا المساهمة هو الآخر في الدعوة للحرب الصليبية للاستيلاء على الاراضي المقدسة ونجدة اللاتين في الشرق⁽²⁾ .

(1) المقریزی: السلوك ج 1 قسم 2 ص 317 .

(2) Ludlow, Age of the crusades, 326 – 7

(3) المقریزی: السلوك ج 1 قسم 2 ص 327 ، انظر كذلك : روثلان:المصدر السابق،ص127-128.

(4) يعرف الملك الفرنسي لويس التاسع Louis IX عند كتاب المسلمين بعدة أسماء هي: الفرنسييس .المقریزی: السلوك ج 1 قسم 2 ص 333) : والافرنسيس انظر (مرآة الزمان ج 8 ص 517) ، ويواش (المقریزی:الخطوط، ج 1 ص 219) ، ورواد فرنس (المقریزی:الخطوط ، ج 1 ص 219) ، وريدا فريز ، والفريساس ، وفراسين ، وريدا فرانس - اي ملك فرنسا - Roi "de France" انظر (ابن واصل ج 2 ، ص 355 ، المقریزی: السلوك ج 1 ، قسم 2 ، ص 333، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج 6 ص 301. والاسم الأخير اكثرها شيوعا لدى المؤرخين . جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق، حاشية 2، ص77-78.

(5) جوزيف نسيم :المرجع السابق، ص51.

(6) روثلان: المصدر السابق، ص127،136.

(7) روثلان:المصدر نفسه، ص137.

(1) جوزيف نسيم :المرجع السابق، ص54.

(2) Matt. Paris, II, 64 – 5, 67 – 8.

ويضيف متى الباريسي أنه تلى ذلك اصدار البابا انوسنت المراسيم البابوية لحث الناس على الاشتراك فى هذه الحملة ، إذ وعد كل من يجاهد فى سبيل الاراضى المقدسة بالغفران التام عن خطايه والتكفير عن آثامه وذنوبه بمجرد انخراطه فى سلك الحرب الصليبية (3).

ويمكن القول أن الأسباب التى جعلت البابا أنوسنت الرابع يوجه الدعوة إلى الحرب المقدسة وتقديم التسهيلات اللازمة للصليبيين وتعضيد الملك لويس ، وعمما إذا كان مدفوعا فى ذلك بدافع دينى خالص ، أم أن هنالك بواعث أخرى دفعته إلى اتخاذ هذا الموقف . الواقع أن الحركة الصليبية بصفة عامة صادفت هوى من نفس الباباوات ، إذ أنهم كانوا يجدون فيها فرصة طيبة للتخلص من مضايقة أمراء الغرب لهم ، فى وقت كانت فيه البابوية تسعى إلى فرض نفوذها الروحى والدنيوى على دول الغرب المسيحى (4) . لذا لا يستبعد أن يكون البابا انوسنت قد دعا إلى الحملة الصليبية السابعة وأيد لويس فى مشروعه ، خوفا من أن يطغى على نفوذه نفوذ رجل دنيوى كالفديس لويس الذى عرف بتدينه وتقواه ، والذى كان يتمتع بمكانة كبيرة بين المسيحيين الغربيين ، مما قد ترى فيه الكنيسة تهديدا لسلطانها . وهكذا يخلو للبابوية الجو لتحقيق مطامعها بتغيب ملك كلويس التاسع عن أوروبا عرف بمواقفه الحازمة حيال الكنيسة ورجال الدين (5) . أضف إلى ذلك أن كفاح انوسنت الرابع مع فريديريك الثانى شغله عن مسألة التفكير الجدى لمساعدة الحركة الصليبية . وغير خفى أن الغرض الأول من المؤتمر الذى عقده فى ليون هو إصدار قرار الحرمان ضد عدوه اللدود الإمبراطور الالماني ، وليس حث المسيحيين فى الغرب الأوروبى على النهوض بحملة صليبية جديدة كما يتبادر إلى الذهن (1) . وليس أدل على صحة ما نقول مما ذكره هنرى وليم ديفيز (1874 - 1928م) - احد مؤرخى الانجليز المحدثين - من أن انوسنت الرابع كان مجردا من النزاهة الشخصية والحماس الدينى للحركة المقدسة (2) . وكان الكاتب الفرنسى جول ميشيلية (1798 - 1874م) Jules Michele أكثر صراحة عندما ذكر أن البابا لم يترك وسيلة إلا واستخدمها لإحباط مشروع الحملة الصليبية أو على الأقل لتعطيلها وتأخير قيامها ، حتى يتسنى له استخدام القوات الصليبية ضد عدوه الإمبراطور الذى كرس نفسه للقضاء عليه، ولم يترك سلاحا - دينيا كان أم دنيويا - إلا وشهره فى وجهه (3) . ويكفى أن قال فيه الراهب الانجليزى متى الباريسي ، الذى عاصر بابويته : " وهكذا سبب البابا وهو أبونا الروحى - الذى اقتفى خطوات الإمبراطور قسطنطين وكان الأولى به أن يتتبع خطى الفديس بطرس - كثيرا من القلاقل والاضطرابات فى العالم" (4) . وبما هو جدير بالذكر أيضا أن ثاديوس دى سسا Thaddeus de sessa مندوب فريديريك فى مجلس ليون ، حاول التوفيق بين العاهلين بأن وعد البابا أن يساهم الإمبراطور فى إعادة الإمبراطورية البيزنطية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية ، وان يجاهد ضد المغول والخوارزمية والمسلمين ، وان يعيد الأمن والسلام فى ربوع الإمارات اللاتينية بالاراضى المقدسة التى كانت مهددة آنذاك بأخطار بالغة . فكان مصير هذه العروض هو الرفض من جانب البابا (5) . وكذلك توسط الملك لويس أكثر من مرة لدى انوسنت للعفو عن الإمبراطور الالماني لصالح المسيحية ، وذلك حتى تتضافر جميع الجهود فى الغرب الأوروبى لتأليف حملة صليبية جامعة حتى يقدر لها النجاح ، لكن شفاعته لويس قوبلت أيضا بالرفض (6) ، مما لا يدع مجالا للشك فى أن البابا لم تكن تعنيه مسألة إعداد حملة صليبية بقدر ما كان يشغله كفاحه مع الإمبراطور ، وابتداعه مختلف الأساليب للقضاء عليه . وعلى هذا يمكن تفسير موقف البابا انوسنت فى انه وجد نفسه مضطرا فى مؤتمر ليون للدعوى لحرب صليبية حتى لا يثير ضده الشعور المسيحى فى الغرب فى وقت كانت فيه الإمارات اللاتينية فى الاراضى المقدسة فى أمس الحاجة إلى المساعدة ، وان كان فى قراره نفسه لا ينبغى قيام هذه الحملة تحقيقا لأهدافه ومصالحه .

وبعد انتهاء مجلس ليون أوفد البابا فى نفس السنة مندوبا من قبله يدعى أدون دى شاترو Odon de chateauroux للتبشير بالحملة الصليبية الجديدة فى فرنسا بناء على طلب الملك لويس التاسع نفسه . كما طاف واليران وارن ولف وغيرهم من المبشرين بباقي بلدان أوروبا داعين إلى الانخراط فى سلك الحرب المقدسة لنجدة إخوانهم اللاتين بالشرق (1) . وعلى الرغم من الدعاية الواسعة للحملة بين دول الغرب المسيحى ، إلا إنها لم تلق تأييدا ملموسا أو عطفًا كافيًا ، لان ظروفها إبان تلك الفترة لم تكن تسمح لها بالاشتراك فى حرب خارج أراضيتها (2) . على العكس من فرنسا التى وجدت فيها هذه الدعايات تربة خصبة خاصة وانه كان يحكمها ملك وفى كرس نفسه وحياته لخدمة هذا الهدف الصليبي والعمل على تحقيقه (3).

Matt. Paris, II, 86 - 7. (3)

جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص55. (4)

joinville, op.cit, p.165. (5)

Matt. Paris, II, 68-73, 77-86. (1)

جوزيف نسيم : المرجع السابق، ص55-56. (2)

جوزيف نسيم : المرجع نفسه، ص55. (3)

Matt. Paris, II, 67. (4)

Matt. Paris, II, 144-5. (5)

Matt. Paris, II, 498. (6)

Matt. Paris, II, 116. (1)

(2) مما يذكر فى هذا المجال انه عندما ذهب واليران للتبشير بالحملة فى انجلترا عام 1245م ، منعه ملكها هنرى الثالث مبينا له

Matt. Paris, 116 - 7. (1)

أن حالة البلاد لا تسمح لها بايفاد جيوشها إلى الخارج . راجع :

(3) روثلان: المصدر السابق، ص137-138.

ونتيجة لهذا الأمر أخذ الملك لويس التاسع على عاتقه مهمة النهوض بهذه الحملة . وإتفق وليم دى نانجى وكذلك متى الباريسى أن الملك الفرنسى لكى يثير بين جنوده الغيرة والحماس ، عقد فى نفس العام (1245م) مجمعا كبيرا فى مدينة باريس حضره المندوب البابوى أدون دى شاترو وكبار رجال مملكته ورجال الدين فيها من الأساقفة ورؤساء الأساقفة الأديرة وغيرهم . وخطب لويس فى الحاضرين داعيا إياهم إلى حمل الصليب . وتمكن بفصاحته من إثارة غيرتهم الدينية ، وضرب لهم المثل لذلك ، إذ كان أول من أدرج نفسه فى الحرب المقدسة (4) . وحذا حذوه كثير من الأمراء والأشراف، فبادر بالانضمام إلى الحملة إخوته الثلاثة روبرت كونت ارتوا ، والفرنس كونت بواتييه، وشارل كونت تنجو ، وكذلك هيج الرابع دوق برجنديا Bourgogne hugues de (5) ، ووليم دى دام بيبير أمير الاراضى الواطئة (6) Dampier comte de flandre guillaume de ، وجوانفيل مؤرخ هذه الحملة واحد فرسانها ، وعدد كبير من البارونات وكبار رجال الإقطاع بفرنسا وفى طليعتهم بطرس كونت بريتانى وهيج العاشر كونت لامارش ، ولم تشأ الملكية مرجريت دى بروفانس (7) زوجة لويس التاسع أن تتركه يسافر دونها ، فحملت هى الأخرى شارة الصليب ، واقتدت بها بعض النبيلات نذكر من بينهن زوجة كل من كونت بواتييه وكونت ارتوا .

لذلك سرت الحماسة بين الجميع ، وهبت فرنسا عن بكرة أبيها بمقاطعاتها المختلفة وطبقاتها المتعددة للسير فى ركاب الملك لويس والانضواء تحت لوائه ، وأخذ عدد المتطوعين يزداد يوما بعد يوم (8) . وكان من بين الذين حملوا الصليب كثير من رجال الدين ليكونوا قدوة لغيرهم من رجال الدنيا ، مثل رئيس أساقفة كل من ريمز rheims والسين sens ، وأسقف كل من بوج bourges ولون laon (9) .

كما أن الملك الفرنسى لجأ إلى خدعة دينية طريفة لاكتساب اكبر عدد ممكن من رعاياه فى الحملة بطريقة لم يسبقه إليها احد من قبل منذ بدء الحركة الصليبية . فقد كان من عادة لويس أن يقدم إلى كبار رجال المملكة من النبلاء والبارونات الهدايا بمناسبة عيد الميلاد من كل عام . وفى ليلة عيد الميلاد لسنة 1245م دعا فرسانه وكبار رجال مملكته وأهدى كلا منهم وشاحا كان قد أمر بحياكة علامة الصليب عليه دون أن يعلم احد بذلك ، وهى الشارة التى كان يحملها كل من يشترك فى الحروب الصليبية . وعندما لبسوا الخلع الملكية أبصر كل منهم علامة الصليب مطرزة على كتف زميله ، ففهموا الحيلة التى لجأ إليها ملكيتهم - وارتسمت على وجوههم ابتسامة الفرح ، ولم يمكن إلا الانصياع لرغبته بالانخراط فى سلك الحملة الصليبية. وهكذا ابتكر القديس لويس طريقة مبتكرة للتبشير بالحملة والدعاية لها ، حتى أنهم أطلقوا عليه منذ ذلك الحين لقب "صائد الحجاج" و "بطرس الجديد" (1) .

وعلى هذا الأساس كانت الاستعدادات فى فرنسا قائمة على قدم وساق من اجل الحملة الصليبية منذ أن حمل الملك الفرنسى الصليب ، فكان أول ما اهتم له لويس التاسع هو مسألة إعداد أسطول قوى لنقل الجند والعتاد عبر البحر حتى يضمن لحملة النجاح . ولما لم يكن لديه بحرية خاصة يمكنه الاستعانة بها ، فقد استأجر عددا من السفن من جنوه ومرسيليا ، وعقد معها اتفاقيات بهذا الشأن (2) . من ذلك المرسوم الذى استصدره فى أكتوبر 1246م الخاص باستئجار ست عشرة سفينة جنوبية ما بين كبيرة وصغيرة من اجل حملته الصليبية ، أما البندقية فقد وضعت تزويده بما يحتاج إليه من سفن نظرا لعلاقتها الطيبة مع مصر (1) . حيث يرى جروسية أن السبب فى ذلك خوف البندقية من قيام حملة صليبية بحرية علي مصر تؤدي إلى إغلاق أبواب التجارة فى وجهها وهى مصدر ثروة طائلة بالنسبة لها (3) .

ويذكر جوانفيل لويس التاسع قد استعد بتوفير الذخيرة والمؤن للحملة لذلك أرسل قبل قيامها من فرنسا بحوالى عامين جماعة من الرجال إلى قبرص على رأسهم شخص يدعى نيقولا دى سوزى Nicolas de souzi لشراء وإعداد ما يحتاجه الجيش من

Nangis, 200, Matt. Paris, II, 214.

(4)

(5) هو هيج الرابع دوق بورجنديا (1218 - 1272م) الذى ينحدر من سلالة أسرة كابيت ، وقد اشترك فى صليبية 1239م بقيادة تيود كونت شامبانيا ، كما قام بتحصيل عسقلان فى 1240م . راجع : جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق، حاشية 1، ص 59.

Grousset, op. cit., p.270-1.

(6) فيما يتعلق بوليم أمير الاراضى الواطئة راجع : .

(7) هى ابنة ريموند برنجيه Raymond Beranger كونت بروفانس ، وقد تزوج لويس التاسع منها فى 1234م ، وصاحبته فى حملته على مصر والشام . راجع عن ذلك : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق، حاشية 3، ص 59.

joinville, op. cit., p.191.

(8)

Ibid, p.191.

(9)

Matt. Paris, II, 127, 128.

(1)

(2) joinville, op. cit., p.191-2. - كان مندوبو الملك لويس وعلى رأسهم اندريه بولان André Polin بولان من رجال

الدين بفرنسا وريونه دى فيشييه Renaud de vichiers كبير الداوية بها ، قد استأجروا 20 سفينة من مرسيليا لنقل الجند والعتاد .

joinville, op. cit. 191-2.

Ibid, p.198.

(1)

Grousset, op. cit., p.271-2.

(3)

الميرة والنبذ والحبوب ، حتى يجدها معدة عند مروره بالجزيرة التي اعتبرت المكان الذي تلتقى فيه الجيوش الصليبية الزاهية إلى الشرق (4).

ويضيف متى الباريسي أن الملك الفرنسي عمل على توفير المال اللازم لتغطية نفقات الحملة ، من حيث الصرف على الجند وتيسير وسائل النقل وإعداد المؤن والذخيرة وغير ذلك . وقد تحصل الملك على المبالغ اللازمة من الضرائب والعشور التي جمعها من رجال الدنيا والدين الذين لم يشتركو في الحملة بشخصهم . فقد دعا البابا انوسنت الرابع الملوك والأمراء والنبلاء وكبار تجار المدن الذين لن يذهبوا بأنفسهم لغزو الأراضي المقدسة ، أن يمدوا الفرق الصليبية بالمصاريف اللازمة لمدة ثلاث سنوات كل حسب مورده ، وذلك للخلاص من خطاياهم. كما دعا جميع رجال الكنيسة أن يساهموا بجزء من عشرين من دخل الكنائس لمدة ثلاث سنوات ، أما الكرادلة فيدفعون العشور ، ويعفى من هذا من يشترك في الحملة من رجال الدين ، وقد أثارت هذه الضريبة الكثير من السخط بين رجال الكنيسة ، ولكن الرسالة البابوية هددت بحرمان كل من يخالف هذه التعليمات . وكانت هذه الأموال تجمع بواسطة عمال البابا (1) . كذلك أصدر البابا قانونا بأن يكون الصليبيون في أمان من مطالب دائنيهم على الديون المستحقة عليهم لمدة ثلاث سنوات وإنفرد روثلان بذكر أن عشر إيرادات الكنائس قد تم تخصيصه لتجهيز الحملة (2) . ولما كان الجيش الصليبي جيشا إقطاعيا بتكوينه ، فقد كان على كبار رجاله من النبلاء والبارونات إعداد المال اللازم للصرف على فرقهم ، كأن يبيعوا أو يرهنوا أراضيهم فنرى جوانفيل مثلا يحدثنا في مذكراته انه لم يتأخر عن رهن أفضل أملاكه للصرف على فرسانه التسعة الذين اصطحبهم معه إلى الشرق على نفقته الخاصة (3).

ويعلق المؤرخ المحدث ميشيل بالار على تلك الإستعدادات بقوله " فمن الناحية العسكرية فقد إستعد الملك لويس التاسع حيث جهز 1537540 دينار تتفق على الحملة التي قدر لها أن تؤدي الغرض منها في ستة أعوام وبجيش يضم 2500 فارس , 5000 من الرماة و10000 من المشاة ونحو 2500 من السلاحدارات أي أن عدد القوات قرابة 25000 رجل وستصل تعزيزات بعد ذلك تجعل من عدد القوات 35 ألف" (4).

ويذكر جوانفيل انه بعد إنتهاء لويس التاسع من المشاكل الخاصة بالنقل والتموين وموارد الحملة ، عمل على تنظيم شؤون مملكته وإقرار الأمن والطمأنينة بين ربوعها قبل سفره إلى الشرق ، كما كان كبار الصليبيين المسافرين بصحبته منهمكين في استعداداتهم أيضا من أجل الحملة (5). ويضيف جوانفيل انه كان من عادة أولئك الذين يحملون الصليب أن يسووا أمورهم قبل القيام بحملاتهم إلى الأراضي المقدسة ، وان يكتبوا وصاياهم ويحددوا انصبه أولادهم ، ونظرا لما كانت تتطوى عليه هذه الحملات من اخطار ، فقد اتخذ هؤلاء المحاربون إجراءات كما لو كانوا مقبلين على الموت ، كأن يعيدوا مثلا لأصحاب الحقوق ما اغتصبوا من حقوقهم إرضاء لضمائرهم. ورغم أن جوانفيل لم يشعر انه اقترب أي وزر ، إلا انه تبعاً لهذه المادة ، عمل على التكفير لجيرانه ورعاياه عن كل ما قد يشكون فيه (6).

ويذكر جوانفيل أن الملك الفرنسي قد أناب عنه في حكم البلاد الملكة الوالدة بلانش صاحبة قشتالة تدير شؤونها في فترة غيابه، ثم استدعى باروناته وكبار رجال مملكته في باريس ، حيث أقسم المقيمون منهم بين يديه يمين الطاعة والولاء بمراعاة حقوقه ، متعهدين بالمحافظة على البلاد والإخلاص لأبنائه الصغار ، وعدم التفكير في خيانتته أو اغتصاب ملكه أثناء تغيبه عن فرنسا (1) . على الرغم من ذلك تأخر مسير الحملة من فرنسا زهاء ثلاث سنوات منذ 1245م وذلك للاستعداد من أجل الحملة ، وبعد أن تم إعداد كل شيء غادر الملك الفرنسي باريس إلى ميناء اجمورت aiques-mortes (تعرف باللاتينية باسم Aquae Mortuae أي "المياه الراكدة") جنوبي فرنسا في 12 يونيو 1248م ، وكان بصحبته جانب كبير من الصليبيين من بينهم زوجته الملكية مرجريت وإخوته شارل كونت أنجو وروبرت كونت ارتوا ، أما شقيقه الثالث الفونس كونت بواتييه فقد بقي في فرنسا بعض الوقت لجمع نجدات وإمدادات أخرى ليلحق بالجيش الفرنسي فيما بعد (2). ويذكر متى الباريسي أن القوات الصليبية قد مرت في الطريق بمدينة ليون حيث كان يقيم البابا انوسنت الرابع . فأمضى لويس باعترافه بين يدي البابا حاصلا منه على صك الغفران على

joinville op.cit,197.

Matt, Paris, II, 87-8.

(2) روثلان:المصدر السابق,ص139.

Joinville op.cit,197.

(4) ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر , ترجمة بشير السباعي ,

الطبعة الأولى , دار عين , القاهرة , 2003, ص237.

Joinville,op. cit,p.192.

Ibid,p.192.

Joinville,op.cit,p.191.

Ibid,p.191-2.

آثامه ، ثم توسل إليه أن يصفح عن الإمبراطور فريديريك لصالح المسيحية دون جدوى ، بعد ذلك غادر لويس وجيشه ليون إلى اجمورت حيث صادقتهم في الطريق بعض الأخطار والمكدرات التي لم يلق الملك الفرنسي بالا إليها⁽³⁾.

وينفرد متى الباريسي بذكر بعض هذه الأحداث حيث يذكر أنه حينما اقترب الصليبيون من افنيون بعد مغادرتهم ليون ، هاجمهم أهلها عاملين فيهم النهب والسلب ، وقتلوا عددا منهم ، وذلك لوجود عداوة قديمة مستحكمة بين الملكية الفرنسية وسكان افنيون الذين قاسوا الأمرين على أيدي عسكر لويس الثامن أبو القديس لويس. وقد أراد بعض النبلاء الفرنسيين في الحملة تأديب هذه المدينة ، لكن لويس التاسع منعهم من ذلك ، وتكرر هذا الأمر عندما بلغت الحملة مرسليليا هاجم سكانها الحملة أيضا وألحقوا بها خسائر كبيرة. مما أغضب قادة الملك لويس التاسع وكادوا أن يدمروا هذه المدينة لولا أن تدخل الملك وأخبرهم أنهم لو فعلوا هذا الأمر سوف يضررون بالحملة وبالهدف الذي قامت من أجله (وهو إسترداد بيت المقدس)⁽⁴⁾.

ويخبرنا جوفانفيل بقوله وفي النهاية خرجت الحملة من ميناء اجمورت في عدد ضخم من المراكب ما بين كبيرة وصغيرة ، تقل الملك الفرنسي وزوجته وغالبية الجيش في 25 أغسطس 1248م⁽⁵⁾ . وأسندت قيادة الأسطول إلى الجنوبية لعدم خبرة الفرنسيين بشئون الملاحة .⁽⁶⁾ وكان يتقدم قطع الأسطول السفينة التي تحمل علم القديس دنيس ، وأرسي الملك في ميناء النمسون limassol جنوبي قبرص التي اعتبرت الملتقى العام للجيش الصليبي ، في السابع عشر من سبتمبر من نفس السنة⁽⁷⁾ . وقد أبحر بعض الصليبيين ومن بينهم جوفانفيل وفرسانه من ميناء مرسليليا في سبتمبر 1248م ، ووصلوا قبرص بعد رحلة بحرية تعرضوا فيها للخاطر ، حيث وجدوا الملك الفرنسي قد سبقهم إليها⁽¹⁾ .

وعند وصول الصليبيون إلى جزيرة قبرص شعروا بأنهم في ديارهم مع بنى عشيرتهم وبأنهم ليسوا غرباء في هذه الجزيرة التي كانت وقتئذ تحت حكم أسرة لوسنيان اللاتينية المسيحية ، فكانت من ثم دولة صديقة لهم. وقد تلقى هنري الأول لوسنيان ملك الجزيرة لويس التاسع ورجاله بالترحاب في عاصمة ملكه الافقوسية Nicosia ، وشاركه شعبه والموارنة⁽²⁾ وممثلو الداوية والاستبارية الذين كانوا بالجزيرة في الترحيب بالجيش الصليبي والملك الفرنسي⁽³⁾ .

طاب للحملة الفرنسية الإقامة في قبرص ، وأمضت زهاء ثمانية أشهر بها (سبتمبر 1248 – مايو 1249م) قبل تحركها صوب الديار المصرية . وقد أمدتنا الأصول الغربية بمعلومات متفرقة حول هذه الفترة الطويلة التي أمضاها الصليبيون بالجزيرة . ولعل أهم حادثة وقعت خلالها هي تلك التي انفرد بذكرها المؤرخ الغربي المعاصر ولیم دى ناجى ، إذ ذكر أن الصليبيين ألقوا القبض على بعض الأشخاص كان قد أرسلهم سلطان مصر الصالح أيوب لدس السم للويس التاسع وقواد جيشه حتى يتخلص منهم⁽⁴⁾ . وان عدم تعرض باقي مصادر الحملة ، شرقية كانت أم غربية ، إلى هذه الحادثة الخطيرة يدفعنا إلى الشك في صحتها. ولو كانت هذه المؤامرة قد دبرت فعلا ، لوجدنا المؤرخين الصليبيين الذين اشتركوا في الحملة لكانوا كتبوا عنها ، أمثال جوفانفيل وجوفرواي دى بلييه والملك لويس نفسه في خطابه إلى الشعب الفرنسي الذي كتبه بعد فشل حملته على مصر وهو في عكا ، يبالغون في وصفها ويهولون من أمرها خاصة وأن هذا الأمر لو حدث لكان له دور في تقوية موقف الصليبيين وإن كنا نرجح أنها كانت دعاية لحفز هم الجنود.

وفي ذلك الوقت أرسل نائب الخان في فارس المدعو الجهادى Äljigidäi احد ايلخانات المغول الذى يحكم في وسط فارس إلى الملك لويس التاسع ، سفيرين مسيحيين هما مرقس وداود⁽⁵⁾ من المسيحيين النساطرة⁽¹⁾ مزودين برسالة إلى الملك الفرنسي

Matt. Paris, II, 268 – 9. (3)

Matt. Paris, II, 268 – 9. (4)

Joinville ,op.cit,p.196. (5)

Ibid,p.196. (6)

Ibid,p.196. (7)

Joinville,op.cit,p.194-5. (1)

(2) نسبة إلى القديس مارون St. Maron ، وهم طائفة كاثوليكية لبنانية كانت موضع رعاية ملوك فرنسا وحمائيتهم في فترة الحروب الصليبية. انظر جوزيف نسيم : المرجع السابق، حاشية 3، ص 67.

Joinville ,op.cit,p.198. (3)

Nangis. Cf. Michaud, crois., VI, 201. (4)

(5) داود مسيحي نسطوري ويحتمل انه من الموصل ، أما مرقس فهو نسطوري أيضا والغالب انه كان في خدمة المغول ورسائل هؤلاء السفراء بعثت الأمل في نفس الملك لويس الذى رد بسفارة دومينكانية برياسة أندرو وأخيه ، وقد وصلت هذه السفارة لتجد جويو .ك قد مات وقامت مكانه رملة أغل قيمتس بالوصاية ، ولقد برهنت أغل هذه على إعتدادها بنفسها ، حيث إعتبرت

يعرض فيها جغطاي خان استعداده للمساهمة مع الفرنسيين في انتزاع بيت المقدس وفلسطين باجمعها من ايدي الدولة الأيوبية ، ورغبته في التحالف معهم ضد أعدائهم المسلمين (2). والواقع أن هذه الرسالة إن صحت تعتبر عملاً دبلوماسياً عظيماً قام به المغول ، إن كانوا هم من أرسلوا هذين السفيرين بالفعل أو أنه كان مجهود فردي من قبل هذين الشخصين وإدعاء أنهم رسل من قبل التتار.

ويذكر جوانفيل حول هذه السفارة بقوله " وبينما كان الملك مقيماً في قبرص أنفذ إليه ملك المغول العظيم (مما يدل على مدى الرهبة التي بعثها المغول في نفوس الأوربيين جراء مذابحهم) رسولان من قبله يحملان له رسائل طيبة كريمة ، وكان من بين ما ذكره ملك المغول إستعداده لمعاونة الملك (لويس التاسع) في غزو الأرض المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين" (3).

بينما إنفرد روثلان بذكر بعض الأشياء التي لم ترد لدى جوانفيل حول سفارة المغول إلى الملك لويس التاسع وهي أن نائب الخان كان مسيحياً (ونرجح أنه كان مسيحياً نسطوري وذلك لسيادة هذا المذهب في تلك الجهات) وكذلك أن السفارة كانت في شهر ديسمبر بقوله " حدث أن أرسل أحد كبار أمراء المغول المسمى الشتاي والذي كان مسيحياً رسله إلى ملك فرنسا في نيقوسيا بقبرص وذلك قبل عيد الميلاد (وهو يوافق 25 ديسمبر لدى الطائفة الأرثوذكسية) (4).

لقد اعتبرت سفارة المغول على جانب عظيم من الأهمية والخطورة لما كانت تدعو إليه من التعاون مع الفرنسيين ضد المسلمين الأمانين ، حتى لقد اعتقد المؤرخ لويس برييه أن قرار لويس التاسع مهاجمة مصر كان على اثر الدعوة التي تلقاها من ايلخان المغول (5). ويجب أن نتقبل هذا الرأي بشئ من الحذر لعدة أسباب. أولاً : أن سفارة المغول لم تؤت ثمارها من حيث التعاون مع الصليبيين. كما باءت بعثة لويس التاسع إلى ايلخان المغول بالفشل .

ثانياً : أن فكرة الهجوم على مصر كانت أقدم من ذلك بكثير من تلك الحملة.

ثالثاً : أننا لا نجد من بين مصادر الحملة ما يؤكد أن سفارة المغول كانت عاملاً محركاً في توجيه لويس شطر مصر .

على أي حال رأى جوانفيل أن الملك الفرنسي لويس التاسع قد بالغ في إكرام وفادة سفيرى ايلخان المغول مرحباً بفكرة التعاون معه ، وسمح لهما بالعودة إلى بلادهم في 27 يناير 1249م ، وأرسل معهما بعثة مكونة من ثلاثة أفراد من جماعة الرهبان الدومنيكان هم أندريه André ووليم دي لونغجومو Guill. de longjumeau ويوحنا الكركسوني jran de carcassonne الذى كان قد عاد من الشرق في ذلك الحين ، فعينه رئيساً لهذه البعثة نظراً لما اكتسبه من خبرة مع المغول. وأرسل مع البعثة هدية ثمينة إلى الإيلخان عبارة عن خيمة على هيئة كنيسة صغيرة نقشت بداخلها بعض آيات الكتاب المقدس وبعض الصور الدينية ، وذلك بقصد استمالته إلى الغرب سارت البعثة من قبرص إلى أنطاكية ومنها أخذت الطريق البرى إلى الموصل فتبرير ، ووصلت في النهاية إلى معسكر جغطاي خان في وسط فارس. ولسوء الحظ كان جيوك ايلخان المغول قد مات. ولم يكن جغطاي مستعداً لمواصلة السياسة التي سار عليها سلفه من قبله فيما يختص بالتعاون مع الملك الفرنسي (1). وهكذا فشلت البعثة في مهمتها من حيث اكتساب المغول إلى الغرب الكاثوليكي أو استخدامهم في الحملة الصليبية، لان الدسائس التي أعقبت وفاة جيوك أحدثت حالة من الفوضى منعت قيام أي عمل جدى. ولم تعد البعثة إلا في سنة 1251م بعد انتهاء حملة لويس على مصر ورحيله هو وقواته إلى فلسطين (2).

حيث يذكر روثلان بعض التفاصيل حول تلك البعثة " وأرسل الملك من جانبه إلى هؤلاء الرسل الأخ أندريه من جماعة سانت جاك. وكان الرسل لا يدركون سبب إرسالهم ، ولكنهم عرفوا فيما بعد عندما تعرفوا على الأخ أندريه. وأمر الملك أن يمثل أمامه هؤلاء الرسل. وكان الأخ أندريه يترجم للملك إلى الفرنسية فذكر أن زعيم المغول مسيحياً يؤيده عدد كبير من المغول ، ويؤيده

هذه السفارة رمزاً لتبعية الملك لويس الإقطاعية للمغول. حسن حبشى: مذكرات جوانفيل، القديس لويس، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ص85.

(1) نسبة إلى نسطور Nestorius الذى كان بطريقاً للقسطنطينية فيما بين عامى 428 و 431م . ويتلخص مذهبه فى أن للمسيح طبيعتين : هما طبيعة الإنسان وطبيعة الله ، وان الجزء الالهى من المسيح لم يولد من العذراء ، وبذا تصبح العذراء أما للمسيح الإنسان فحسب. وقد ادين نسطور هذا فى مجمع افسوس المسكونى عام 431م برئاسة بطريق الإسكندرية كرلس الأول فى عهد الإمبراطور البيزنطى ثيودسيوس الثانى ، حيث اعتبرت حركته هرطقة والحادا. انظر :جوزيف نسيم:المرجع السابق،حاشية2،ص69.

Joinville ,op.cit,p.197-8.

(2) روثلان:المصدر السابق،ص145-146.

Ibid,p.197.

(3)

(4) روثلان:المصدر السابق،ص145.

(5) جوزيف نسيم:المرجع السابق، ص69.

Joinville ,op.cit,p.198.

(1) روثلان المصدر السابق ، ص 148.

Ibid,p.198.

(2)

كذلك معظم كبار سادتهم في فارس. وأخبره أيضا أن الشلتاي وكل قواته من المغول سوف يكونون في خدمة ملك فرنسا والصليبيين ضد خليفة بغداد (المقصود به الخليفة العباسي المستعصم بالله "640-656/1242-1258م") لأنهم يرغبون في الإنتقام للمسلمين للكره الكبير لهم , ولما ألحق الخوارزمية والمسلمون الآخرون من خسائر فادحة بسيدنا يسوع المسيح. وذكروا أيضا أن سيدهم يطلب من الملك أن يتقدم إلى مصر لمحاربة سلطان مصر (المقصود به الملك الصالح نجم الدين أيوب "643-647هـ/1245-1249م") في نفس الوقت الذي يتجه فيه المغول لمحاربة خليفة بغداد لأنه بهذه الطريقة يمكن لكل منهما أن يساعد الآخر ويقوى من عزيمته. فرأى ملك فرنسا أن يرسل رسله مع هؤلاء المندوبين إلى سيدهم الشلتاي , وإلى الرئيس الأعلى المسمى كيوك , ليعرف حقيقة ما عرض. ويقال أنه مرت نصف سنة إلى أن تم صحبتهم إلى كيوك , ولكن سيدهم الشلتاي وجيش المغول لم يكونوا بعيدين عن ايلوك , لأنهم كانوا في فارس التي عملوا على تدميرها وجعلها تحت سيطرة المغول. وقيل أيضا بأن المغول كانوا تحت مشيئة الملك والمسيحية. وعندما حان اليوم الخامس عشر بعد عيد الشمعة Chandelear (يقع في 2 فبراير من كل عام) وصل سنويا مبعوثوا المغول ورسل ملك فرنسا وهم الأخ أندريه من جماعة القديس جاك وأحد الإخوان , والسيد حنا جورديش وآخرون من قساوسة بواسى , وهسبر وجلبرت دى سن. وعندما حل منتصف شهر الصيام (فبراير أى الصوم الكبير) وصل للملك أخبار من هؤلاء الرسل بأن يرفع الراية ويتجه إلى سيد المغول في قلب أراضي المسلمين, ويمكن أخذ ما يرغب عن طريق رسل سيد المغول. وبعد ذلك , كان المرافقون للملك ما يقرب من ألفين وخمسمائة فارس , وخمسة آلاف من رماة السهام وعدد كبير من المقاتلين المشاة. فاستقل الجميع المراكب وأبحروا إلى ليماسول والموانى الأخرى لقبرص. وذلك يوم عيد الصعود الذي كان موافقا حينذاك 13 مايو , وذلك للإتجاه إلى دمياط ومكتنا في البحر إثنين وعشرين يوما وواجهتنا هناك صعوبات عديدة " (1)

ومن خلال رواية روثلان يتضح لنا أن التحالف العسكرى كان الغرض الأساسى للملك لويس التاسع مع المغول , خاصة أنه كان في حاجة إلى ماسة من بسانده في حملته إلى الشرق وفي الإستيلاء على بيت المقدس , كذلك فقد إنفرد روثلان بذكر تفاصيل هامة هي أن الرحلة صوب جزيرة قبرص من فرنسا قد إستغرقت إثنين وعشرين يوما.

بينما يذكر جوانفيل "ولقد بالغ الملك في إكرام وفادة الرسل , وأنفذ بالتالى سفارة من لدنه إلى ملك المغول عادت بعد عامين , وأرسل معهم إليه خيمة على هيئة كنيسة , وهى خيمة غالبية لانها مصنوعة بأكملها من القماش القرمزى الجميل الرائع , وأراد الملك أن يرى ما إذا كان في قدرته إجتذاب أولئك المغول للإيمان بديننا , فأمر بنقش الخيمة بصور تمثل بشارة سيدتنا العذراء بالمسيح , وجميع أسس عقيدتنا , وأرسل الملك هذه الأشياء بصحبة أخوين من الجماعة المبشرين يعرفان لغة المغول, ويستطيعان هداية المغول وتعليمهم السبيل إلى الإيمان(2). أى أن غرض بعثة الملك الفرنسى للتتار هو تنصير المغول وكذلك للتحالف العسكرى معهم.

ويكمل جوانفيل "وأرسل الملك كذلك مع المحراب مجموعة من الأكواب والكتب وجميع الأشياء اللازمة لترتيل القداس , وإثنين من المبشرين لتلاوة القداس أمام المغول" (3).

ويسهب جوانفيل بعض التفاصيل حول رحلة رسل الملك إلى المغول حيث يقول " وصل رسل الملك إلى ميناء إنطاكية , وإستغرق سفرهم منها إلى ملك المغول مدة عام كامل كانوا يقطعون في كل يوم مسافة عشرة فراسخ , فلما وصلوا إلى هناك وجدوا أن المغول قد بسطوا سلطانهم على جميع البلاد, وأنهم دمروا كثيرا من المدن, وأبصروا اكواما ضخمة من عظام الموتى " (4). مما يدل على بشاعة هؤلاء المغول وشدة قسوتهم في معاملتهم للمدن التى يستولون عليها.

ويكمل جوانفيل " فسأل الرسل المغول كيف إستطاعوا بلوغ مثل هذا السلطان وتقتيل هذه الاقوام وتشريدهم , فكان ردهم عليهم ما نقله الرسل إلى الملك فيما يلى: " جاء المغول أصلا من بطاح رملية فسيحة لم يتهيا لأحد عبورها , ويبدأ هذا السهل من صخور ضخمة عظيمة الإرتفاع عجيبة جدا تقع في نهاية شرقى العالم , ولم يسبق لأحد ما إجتياز تلك الصخور وهم يقولون إن حول هذه الأسوار شعب يأجوج ومأجوج الذين لا بد من مجيئهم عند إنتهاء العالم حينما يأتى المسيح الدجال ليفسد كل شىء" (1). أى أن سبب قسوة المغول من وجهة نظرهم هي الظروف الجغرافية هي التى جعلتهم أشد غلظة عن غيرهم من الشعوب المحيطة بهم في المنطقة.

ويضيف جوانفيل " ويسكن الشعب المغولى في هذا السهل , وكان المغول خاضعين للكاهن يوحنا (وهى أسطورة لملك مسلم سينتصر ويعيد القدس للمسيحيين ويتنصر على يديه كل المسلمين) ولإمبراطور فارس الذى تقع بلاده متأخمة لبلاده ولأراضى كثير من الملاك الفرة الذين يدفعون له جزية سنوية" (2).

(1) روثلان:المصدر السابق,ص146-148.

Joinville ,op.cit,p.197-8.

Ibid,p.281.

Ibid,p.282.

Joinville,op.cit,p.283.

Ibid,p.283.

(2) ذكره جوانفيل كملك يحكم بجانب المغول تلك المنطقة

ويكمل جوانفيل رد الإيلخان المغول على هذه السفارة بعد تلقيه الهدايا بقوله " فنذكر ما فعله الإيلخان بعد تلقيه رسل الملك وهداياه من إرساله عهد أمان لجميع الملوك الذين لم يدينوا له بالطاعة بعد , فلما جاءوه أمر بنصب كنيسة الملك وخاطبهم بقوله " أيها السادة , لقد بعث ملك فرنسا إلينا ملتسما عطفنا للدخول في طاعتنا , وهاكم الجزية التي أنفذها إلينا فانظروها , فإذا لم تستسلموا لنا فإننا مرسلون في طلبه للقضاء عليكم" وإذ ذاك أعلن أكثر الحاضرين إستسلامه للملك المغولي خوفا من الملك الفرنسي" (3).

ويضيف جوانفيل ان مبعوثوا الملك قد عادوا وفي صحبتهم آخرون - لم يهتم جوانفيل بسرد التفاصيل عنهم , من قبل ملك المغول العظيم , الذي حملهم كتبنا منه إلى ملك فرنسا جاء فيها " السلم خير , فإنه إذا ساد أرضا اكلت كل ذات أربع حشيش السلام , كما أن من يذبون على قدمين يفلحون الأرض التي تخرج كل طيب في سلام أيضاً" (4).

ويكمل جوانفيل رد الإيلخان "وإننا نقص عليك هذا الخبر لتزداد معرفتك , إذ لن تعرف , معنى السلام إلا إذا عقدته معنا , فقد ثار بريستر جون ضدنا كما ثار علينا غيره من الملوك , فحكمتنا السيف فيهم جميعا" ثم راح يعدد له هؤلاء الملوك ثم قال " لذلك ننصحك أن ترسل إلينا - عاما بعد عام- بشيء من ذهبك وفضتك , وبذلك تبقينا أصدقاتك , فإن لم تفعل هذا دمرناك أنت وشعبك كما فعلنا مع من ذكرنا لك من الملوك" (2). ونتيجة لذلك ندم الملك الفرنسي على إرساله رسلا إليه" (5).

ويذكر جوانفيل أنه بعد عودة هذه السفارة أرسل الملك لويس التاسع الذي لم يتعلم من رد المغول شيئا بعثة أخرى مكونة من اثنين من الرهبان هما برثولماس دي كرمونا Bartolomeo de Cremona , ووليم دي روبروك Guill. de Rubruck الذي دون أخبار رحلته ومغامراته في الشرق على هيئة مذكرات قدمها إلى لويس التاسع. وقد أبحرت البعثة من قيسارية في 1252م حتى وصلت إلى بلاط منجكا (1251-1259م) mongka ايلخان المغول في منغولي ا . وقد استقبل منجكا أفراد البعثة , ولكنها فشلت في التأثير عليه , وعاد روبروك إلى أوروبا في يوليو 1254م بعد أن ترك زميله برثولماس للاستمرار في التبشير بالمسيحية الغربية بين المغول(1). مما يعني عدم تحقيق تلك البعثة أية نتائج تحقق فائدة على المستوى السياسي والعسكري لصالح الملك لويس التاسع او لحملته على مصر.

ويفرد جوانفيل بذكر حادثة أخرى في الفترة التي قضاها لويس التاسع بجزيرة قبرص, وفدت إليه هناك أيضا الاميرة مارى زوجة بلدوين الثاني إمبراطور القسطنطينية اللاتينية وابنة جان دي برين صاحب "حاكم" عكا والملك الاسمي لبيت المقدس , في طلب العون منه ومن كبار الصليبيين لإقرار مركز زوجها المزعرع في عاصمة ملكه . ولكنها لم تلق إلا عطا ووعودا خلافة لم تلبث أن ذهبت أدراج الرياح بعد مغادرتها الجزيرة (2).

ويسهب جوانفيل بذكر بعض التفاصيل على هذا الامر حيث يذكر ذلك بقوله " بينما كنا لانزال مقيمين في قبرص بعثت إلى إمبراطورة القسطنطينية كلمة تنبئني فيها بوصولها إلى ألباف وتأمرنى ان أذهب إلى هناك في طلبها انا وسيدى إفرارد صاحب برين. فلما بلغنا ألباف أخبرنا القوم (أهل ألباف القبارصة) أن ريحا عنيفة هبت فقطعت حبال المرساة التي تربط سفينتها (أى سفينة الإمبراطورة مارى) ودفعتها نحو عكا, ولم يبق من متاعها كله سوى عاتتها وميدعتها التي ترتديها أثناء تناول الطعام (مما يدل على تنوع الملابس في تلك الفترة تبعا للمناسبة), فأخذنا الملكة إلى ليماسول حيث أستقبلت أحسن إستقبال من الملك (لويس التاسع) والملكة (مرجريت دي بروفانس) ومن جميع بارونات فرنسا وكذلك من الجيش(3).

ويكمل جوانفيل ويقول " وفي الصباح بعثت لها بشيء من القماش لتصنع منه ثوبا ومعه فراء القاقم الثمين , كما أرسلت إليها بعض التفاه , وحدث أن إلتنقى سيدى فيليب دي نانثيل الفارس المعلم الذى كان في خدمة الملك بخادمى وحامل ترسى وهو في طريقه إلى الإمبراطورة, فلما رأى هذا السيد الجليل ما هو جار إنطلق إلى الملك مخبرا إياه أننى اخجلت الملك والبارونات أشد الخجل بإرسال تلك الثياب إلى الإمبراطورة (وهو قد تصرف تصرف فردى مما أخرج الملك الفرنسي) بينما لم يدركوا ما هى فى حاجة إليه (مما يشير إلى عدم رضا جوانفيل عن تأنيب الملك الفرنسي وكبار حاشيته له جراء هذا التصرف(4).

ويضيف جوانفيل تفسيراً لسبب قدوم الملكة بقوله " وكانت الإمبراطورة قد حضرت تطلب من الملك مد يد المعونة لزوجها (بلدوين الثانى) الذى خلفته فى القسطنطينية وأنها قد حضرت لهذا الغرض , فرجعت ومعها أكثر من مئتي رسالة منى ومن سواى من أصدقائها , وقد أقسمنا فى هذه الرسائل أغلظ الإيمان أن نذهب إلى هناك إن رغب الملك أو النائب بإرسال ثلاثمائة فارس إلى القسطنطينية عقب عودته من رحلته(1).

Ibid,p.287. (3)

Ibid,p.287. (4)

Ibid,p.288. (2)

Ibid,p.288. (5)

Joinville,op.cit,p.198. (1)

Ibid,p.198 (2)

Ibid,p.198-9. (3)

Ibid,p.199. (4)

Joinville,op.cit,p.199. (1)

وهو ما يدل على أن الإمبراطورة ماري قد أخذت وعودا دبلوماسية ليس أكثر وأن زيارتها قد باءت بالفشل وأنها لم ترجع سوى بالكلام المعسول وبخفي حنين إن جاز لنا أن نذكر هذا الأمر.

ويفسر جوانفيل موقفه حيال هذا الأمر حيث يقول " ولكي أفي بيمينى طلبت من الملك وقت أن حان ميعاد عودتنا إلى فرنسا -وفي حضرة كونت أبو الذي أحمل كتابه- أن يأذن لي بالذهاب إلى القسطنطينية-وفاء بعهدى- إذا قبل إرسال ثلاثمائة فارس إليها, فأجابني الملك بأنه لم يعرف بماذا يجيب , وأن خزائنه قد أوشكت على الإفلاس رغم أنها كانت عامرة بالمال من قبل (2).

ويرى الباحث أن موقف الملك الفرنسي من هذا الأمر كان يتفق وطبيعة الأحداث خاصة وأنه ذاهب لحملة صليبية لايعرف نتائجها بعد وهو في حاجة إلى كل جندي صليبي فرنسي أو متطوع أو غير ذلك يسانده في معركته التي يريد لها أن تكتمل على أكمل وجه , لذلك ليس من المعقول أن يمنح الملك الإذن بالسفر إلى بعض جنوده وفرسانه مع الإمبراطورة وهو الأمر الذي قد يضعف موقفه الحربي في تلك الفترة هذا من ناحية , وكذلك ليس من المعقول أن يؤيد الملك الفرنسي الذي اشتهر بالنقوى والورع في تلك الفترة الصراع المسيحي المسيحي في تلك الفترة لأنه بناء على وجهة نظره التي يمكن أن نستنتجها أن السيوف أحرى أن توجه إلى المسلمين أولا من ناحية ثانية , وكذلك رحيل بعض حنود الحملة من قبرص إلى أرمينيا للمشاركة في القتال والأسلاب في الصراع بين السلاجقة والارمن غير أنهم لم يعودوا مرة أخرى كما يذكر جوانفيل (3) هذا من ناحية ثالثة, فإذا أضفنا إلى ذلك قلة الأموال التي مع الملك والتي لا تكفي الحملة كان من الطبيعي أن يكتفى الملك بالردود الدبلوماسية والوعود بالمساعدة والدليل على قلة الأموال أن جوانفيل نفسه حينما وصل إلى جزيرة قبرص لم يكن معه من الألف دينار التي هي دخل أرضه سوى مائتين وأربعين دينار هي التي تبقت بعد دفع مصاريف إستئجار السفن لذلك وضع الملك الفرنسي في خزانة جوانفيل ثمانى مائة دينار لكي يستطيع أن يكفل تسعة فرسان وإثنين من حملة السناجق (4) هذا من ناحية أخرى.

ولقد لبثت الحملة الصليبية في قبرص قرابة ثمانية أشهر على الرغم من رغبة الملك الفرنسي في التقدم السريع إلى مصر , وذلك نزولا على نصيحة البارونات والقواد بالانتظار ريثما يلحق به بقية الجيش الذي لم يصل إلى الجزيرة بعد (1). فاستقر الرأي على تمضية فصل الشتاء فيها وان تبدأ العمليات الحربية في الربيع القادم (2).

ويمكن القول أن هذه المدة الطويلة التي قضاها الفرنج في الجزيرة دون القيام بأى عمل مجد نافع , قد أضرت بالحملة أكثر مما أفادت. ونضرب مثلا لذلك بالصراع الذي قام في شهر مارس سنة 1249م بين الجنوبية والبيزانة في عكا , الذي تطور إلى حرب مكشوفة بينهما في شوارع المدينة استمرت 21 يوما واستخدمت فيها آلات القتال المختلفة . وقد رجحت كفة البيزانة على الجنوبية الذين قتل احد قناصلهم. وأخيرا عقدت هدنة لمدة ثلاثة سنوات بين الفريقين بعد توسط يوحنا دبلين Jean d'ibelin حاكم ارسوف وبفضل ما كان يتمتع به الملك لويس التاسع من مكانة بين إفرنج الشرق. ولقد تسبب هذا القتال في تأخير إبحار الصليبيين من قبرص فترة من الوقت . ذلك أن الملك الفرنسي كان قد طلب من الجنوبية بعكا عددا من السفن لتسهيل نقل الجنود والمهمات عبر البحر إلى مصر. ولكنه لم يتلق أية معونة بسبب القتال الذي نشب حينذاك بين هاتين الجاليتين , ولم تعد قطع الأسطول اللازمة إلا بعد أن استتب السلم بينهما , وكان ذلك قبل مغادرة الحملة الجزيرة بفترة وجيزة . وتعتبر هذه الحرب طورا من أطوار الصراع المستمر بين الجنوبية والبيزانة في عكا , الذي امتلأ به تاريخ النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد. وكانت غالبا ما تقوم لأسباب تتعلق بالملكية أو المسائل التجارية , كما كانت من العوامل التي أضعفت قوى الفرنج في الشرق اللاتيني , إلى درجة انه لم يكن بوسعهم الصمود في وجه الهجمات التي كانوا يتعرضون لها أو الدفاع عن ممتلكاتهم ومعاقلم (3).

ويذكر جوانفيل أن الوقفة الطويلة التي أمضاها الجيش بقبرص كانت سببا في نفاذ الأموال التي كان الصليبيون قد جمعوها قبل سفرهم للصراف على أنفسهم في الشرق , حتى أن الملك لويس اضطر إلى إمداد عدد كبير منهم بالمال اللازم (4). فقد حدث مثلا أن فرسان جوانفيل التسعة الذين اصطحبهم معه اخذوا يهددونه بعد وصولهم بقبرص بالتخلي عنه أن لم يدفع لهم رواتبهم في الوقت الذي لم يبق معه سوى مبلغ ضئيل سمن المال الذي جمعه قبل مغادرته فرنسا . ولكن عندما علم الملك الفرنسي بذلك , أمر بإدخال جوانفيل وفرسانه تحت نفقته متعهدا بالصراف عليهم من ماله الخاص (5).

ويضيف متى الباريسى أن القوات الصليبية قد إستنفذت خلال إقامتهم بقبرص معظم المؤن والمهمات المقدسة التي كانوا قد جمعوها لتموين قواتهم عند اقتالهم مع المسلمين , حتى أنهم اضطروا إلى انتظار ورود مؤن جديدة . وكان أهل البندقية يقدمون

Ibid,p.199.

(2)

Ibid,p.200.

(3)

Ibid,p.198

(4)

الدينار , عملة ذهبية يساوى 4,722 جرام وقد شاع إستعمالها في تلك الفترة .فالتر هنتس:المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى ,ترجمة د.كامل العسيلي , الطبعة الثانية, منشورات الجامعة الأردنية, عمان, 1970, ص18.

Joinville ,Ibid,p.200.

(1)

Ibid,p.201.

(2)

Ibid,p.201.

(3)

Ibid,p.201.

(4)

Ibid,p.198.

(5)

للحملة ما كانت تحتاج إليه من الازواد نظير مقابل ، فإن البنادقة كانوا قوما نفعيين يجرون وراء مصالحم الخاصة ، وكان شعارهم " لنكن أولا بنادقه وبعد ذلك مسيحيين" (1) . كما يخبرنا متى الباريسي أن دور الإمبراطور فريديريك الثاني فقد أرسل إلى الصليبيين كميات وافرة من الميرة دون مقابل ، ومن ثم أرسل إليه ملك فرنسا وكبار رجال الحملة كتابا باللاتينية يشكرونه فيه لهديته . كما أرسل لويس التاسع في نفس الوقت إلى البابا يلتمس منه الصفح عن فريديريك في سبيل المسيحية ، ولصالح الهدف الصليبي الذي قامت الحملة من أجله ، ولو أن هذا الالتماس لم يحرك شعور الرحمة في قلب ذلك البابا العنيد(2) .

لذلك يمكن القول أن الفترة الطويلة "ثمانية أشهر وعشرة أيام" التي قضاها الصليبيين في جزيرة قبرص كانت خطة خاطئة ، حيث أن هذه الفترة الطويلة التي قضاها الفرنج في قبرص خطة خاطئة ، إذ أضاع الجيش الفرنسي وقتا ثميناً في الجزيرة عاد عليه بكثير من الأضرار . فقد استنفذ مئوته ، ولم يبق على شيء من تلك التلال الممتدة من الحنطة والحبوب وبراميل التبيذ التي رآها جوانفيل مكدسة في الخلاء على ساحل الجزيرة عند وصوله إليها(3) . فكل هذا قد نفذ عن آخره وكانت النتيجة الطبيعية لذلك يفصل جوانفيل أن الأسطول الصليبي لم يستطع مغادرة الجزيرة إلا بعد تدبير المؤونة اللازمة له من جديد (4) . ويضيف جوانفيل أن الصليبيين قد انفقوا أموالا كثيرة بدون حساب حتى انه لم يبق معهم إلا القليل مما لا يكفي لسد نفقاتهم . كذلك انغمسوا في اللهو والملذات نتيجة الكسل والتراخي مما اضعف قواهم وأنهكها ، وباتوا في أمس الحاجة الى فترة أخرى للراحة والاستجمام (5) . وقد ترتب على ذلك أن اختل نظام الجيش ، وانتشرت الأمراض بين صفوفه ، حتى انه مات ما يقرب من 250 من رجال الحملة قبل تحركها من الجزيرة صوب مصر (6) . وفي أثناء هذه العطلة وصلت أخبار الحملة الى سلطان مصر مما أتاح له الفرصة للاستعداد لمواجهة الصليبيين بتحصين مدينة دمياط التي كان يتوقع هجومهم عليه ، وتزويدها بالمقاتلة والمؤن والذخيرة (7) .

ومن الجدير بالذكر أنه لو أبحر الصليبيين مباشرة الى مصر دون البقاء في قبرص طيلة هذه الأشهر الثمانية ، لوصلوا هنالك في الخريف حيث يكون الجو ملائماً لهم من الوجهتين الحربية والصحية ، ولباغتوا المصريين قبل أن يجدوا وقتاً كافياً للتسلح والتأهب لملاقاتهم . فضلا عن أن فصل الخريف يتفق وجنى بعض المحاصيل وخزنها فيمكنهم حينئذ نهبها والاستفادة منها .

ويذكر بعض المؤرخين والكتاب المحدثين انه كما كان لهذه العطلة في قبرص مضارها ، فلها أيضا مزاياها التي تلخص في أنها أعطت للملك لويس وجيشه الفرصة لوضع "التكتيكات" الحربية وخطط الهجوم المقبلة على الديار المصرية بعناية وحذر ، كما أنها جعلت جميع قوات الشرق اللاتيني تلتف حول الملك الفرنسي وتنضوي تحت لوائه في عدوانه على الإسلام (1) ولكن مهما كانت الدوافع أو الأسباب التي دعت الى ذلك التأخير الطويل في الجزيرة ، فانه قد اضر بالحملة أكثر مما أفادها .

كل هذه الأمور تتصل بالمعسكر الصليبي في قبرص ، أما في مصر فقد كان الصالح أيوب مشغولا بنزاعه مع الناصر يوسف صاحب حلب . إذ توجه بعسكره من مصر الى الشام لاسترجاع حمص التي كان قد استولى عليها صاحب حلب . وبينما كان الصالح نجم الدين بدمشق وجنده على حصار حمص ، تواترت إليه الأخبار بخروج الصليبيين في جموعهم العظيمة من جزيرة قبرص وعلى رأسهم ملك فرنسا لويس التاسعيأهبون لقصد مصر . فاضطر الى عقد الصلح مع صاحب حلب وأسرع بالعودة الى مصر كيما يعد العدة لملاقاة الفرنج ودفع شرهم (2) .

كما أن الأنباء الخاصة بحركة لويس التاسع تصل الى الملك الصالح نجم الدين من جانب الإمبراطور فريديريك الثاني حسبما جاء في بعض المراجع العربية . فقد ذكر المقرئزي (3) أن الإمبراطور فريديريك الذي كان مصافيا للصالح أيوب كما كان مصافيا للملك الكامل محمد من قبله ، بعث برسول متكرر في زى تاجر الى نجم الدين وهو بدمشق وعساكره على حصار حمص يخبره بأن لويس التاسع عازم على المسير بجحافل الجراراة الى ارض مصر لامتلاكها . بينما كان المؤرخ ابن أبيك أكثر دقة ، حيث ذكر " أن فريديريك هذا بعث برسالة الى السلطان ، يعرفه بوصول الفرنسيين إليه وهو طالب لتغر دمياط ، وهذا الفرنسيين يسمى الريد أفرنس . ثم قال الانبرور (الإمبراطور فريديريك) في كتابة للسلطان أنه وصل في خلق كثير وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على رده عن مقصده وخوفته فلم يرجع لقولى ، فكن منه على حذر " (4) .

Matt. Paris, II, 306. (1)

Matt. Paris, II, 306 – 7. (2)

Joinville ,op.cit,p.197. (3)

Ibid,p.201. (4)

Ibid,p.191-5. (5)

Ibid,p.201. (6)

(7) راجع ابن واصل:المصدر السابق،ج5،ص332-333.

Grousset, op.cit,p.273-4.

(1) Joinville ,op.cit,p.201. راجع أيضا

(2) ابن واصل ج 2 ص 354 و 356 . هذا وقد ذكر العيني (عقد الجمان , ص 296) أن الصالح نجم الدين أيوب رحل عن

دمشق قاصدا مصر يوم الاثنين 4 محرم 647هـ/19 ابريل 1249م .

(3) المقرئزي:الخطط،ج1،ص219.

(4) ابن أبيك : كنز الدرر ، ج 7، ورقة 364 – 365.

ومن الغريب أن يفشى الإمبراطور فريديريك أخبار الحملة الى المصريين بينما يقدم المساعدات المادية للصليبيين . ولكن الدارس لموقف فريديريك من الحملة الصليبية على مصر ، يجد انه كان يتبع سياسة ذات شقين متناقضين. احدهما يقتضيه معاونة الحملة وإمدادها بما تحتاج إليه من المؤنة والمال باعتباره مسيحيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وليس أدل على هذه الصفات مما ذكره العيني⁽⁵⁾ من انه "قيصر المعظم ... حافظ بيت المقدس ، معز إمام رومية ، مالك ملوك النصرانية ، حامى الممالك الفرنجية ، قائد الجيوش الصليبية" . لذا كان طبيعيا وهذه ألقابه والحملة حملة صليبية تهدف الى الاستيلاء على الأراضى المقدسة ، أن يمد يد العون الى القديس لويس ، خاصة وان العلاقات بينهما كانت طيبة وطيدة ، إذ توسط الملك الفرنسى مرارا لدى البابا انوسنت الرابع من اجل العفو عن فريديريك ، كما دافع عنه ضد الاتهامات التى كان البابا يوجهها إليه. أما الشق الثانى من سياسته فيرمى الى إفشاء أسرار الحملة الصليبية الى سلطان مصر . ولم يكن هذا غريبا من فريديريك بالذات ، إذ كانت علاقته بالصالح أيوب وبأبيه الكامل قائمة على الود وحسن التفاهم . ويكفى انه عقد مع الكامل محمد معاهدة سلمية – تكاد أن تكون الأولى من نوعها فى تلك العصور التى اشتهرت بالتعصب الدينى – تنازل له فيها السلطان عن طيب خاطر عن مدينة بيت المقدس . كما كان المسلمون فى مصر وسورية وفى جزيرة صقلية يكتنون للإمبراطور الالمانى كل تجميل واحترام ، لسياسة التسامح الدينى التى سار عليها فى عصر امتاز بالتعصب الأعمى فى هذه الناحية⁽¹⁾ . ويكفى للدلالة على ذلك انه لم ينفذ جوانفيل من الموت عندما وقع فى أسر الأسطول المصرى خلال تراجع الفرنج من المنصورة الى قاعدتهم فى دمياط ، إلا عندما صاح احد المسلمين الذين فى الأسطول بأنه – أى جوانفيل – من أقارب الإمبراطور فريديريك الثانى⁽²⁾ . وكان من نتيجة ذلك أن اعتبره كثير من العرب انه أميل الى الإسلام منه الى النصرانية ، وانه كان يؤثر القرآن على الإنجيل⁽³⁾ بل لقد اتهمه أحد مؤرخى الغرب المحدثين بأنه كان يهدف الى التحالف مع سلطان مصر الصالح أيوب ضد الصليبيين⁽⁴⁾ . وفى الوقت نفسه لا ينبغى أن يغرب عن الفكر أن أخبار الحملة كانت تتسرب الى المصريين عن طريق جواسيسهم⁽⁵⁾ . يؤيد هذا ما ذكره احد المحاربين الصليبيين – ويدعى جاي دى ميلان – من أن سلطان مصر عرف بأبناء الحملة عن طريق عيونهم⁽⁶⁾ ثم أن الفترة الطويلة التى أمضاها الفرنج فى قبرص كانت كفيلة بتسرب دقائق الحملة الى الخارج . وليس أدل على ذلك من أن جغطاى احد يلاخانات المغول أرسل سفارته المشهورة الى لويس التاسع أثناء إقامته بقبرص عندما ذاع فى الشرق الاسلامى أنباء مشروعه الصليبي⁽⁷⁾ . وان الملك الناصر داود بن المعظم صاحب الكرك ، امتنع عن تسليم الكرك الى الملك الصالح، بعد أن وعده بها ، عندما بلغت حركة الفرنج الى الديار المصرية⁽⁸⁾ .

على أية حال ما أن علم الصالح أيوب بحركة الفرنج وكان حينئذ بدمشق حتى عاد مسرعا الى مصر محمولا على محفة ونزل بأشموم طنح⁽¹⁾ فى يوم الثلاثاء 3 صفر 647هـ⁽²⁾ 18 مايو 1249 م " ليكون فى مقابلة الفرنج إذا وصلوا الى دمياط⁽³⁾ .

(5) العيني: عقد الجمال ، ص 199 – 200 .

(1) ابن واصل: المصدر السابق، ج5، ص333.

(2) Joinville ,op.cit,p.220.

(3) العيني : عقد الجمال ، ص 199 .

(4) Conder, the latin kingdom of Jerusalem 346. وللمزيد من المعلومات حول موقف فريديريك الثانى من الحرب الصليبية انظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين – ط . ثانية – ص 99 – 100 والحواشى .

(5) افرد محمد بن منكى فضلا هاما فى الشروط الواجب توافرها فى العيون والجواسيس ، منها أن يكون للجاسوس ميل طبيعى لا غرضى لمثل هذا العمل ، وان يكون ممن يحسن الكتابة ولسان المرسل إليهم ، وان يكون شجاعا مقداما ، له درية لما هو بصدده ، وان يكون ممن له جلد على الجوع والعطش ، وان يكون معه مال مخفى لاحتمال أن تطول اقامته بين أعدائه فيمكنه مثلا أن يفتح دكانا ليخفى أمره وتستمر قضيته. انظر ابن منكى : الأحكام المملوكية، ص 114 – 115 . وكذلك : جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص80.

(6) Guy de melon, 612.

(7) روثلان: المصدر السابق، ص145-146.

(8) ابن واصل: المصدر السابق ، ج 2 ، ص 355 .

(1) اشموم طنح إحدى المدن المصرية القديمة ، وإسمها بالقبطى Chemoun Erman وسماها العرب أشمون الرمان نسبة إلى إسمها القبطى وسميت أيضا أشموم طنح (جوزيف نسيم كالمرجع السابق، حاشية 4، ص81.) وهى تقع على الشاطئ الشرقى للبحر الصغير الذى كان يسمى وقتذاك بحر اشموم نسبة إلى هذه المدينة. وهى "تعرف باسم اشموم طنح وشموم الرمان ، وهى قسبة كورة الدقهلية ، وانها ذات حمامات واسواق وجامع وفنادق.. ومساحتها 1758 فدانا". وقد استمرت اشموم طنح قاعدة لاقليم الدقهلية إلى آخر عصر دولة المماليك. وفى أوائل الحكم العثمانى نقلت القاعدة إلى مدينة المنصورة. ومنذ

وفى الحال أخذ فى الاستعداد لمواجهة العدو وإعداد الجيوش للدفاع عن مملكته . فعمل على تحصين مدينة دمياط لعلمه أنها كانت هدف الصليبيين فى حملاتهم السابقة على مصر ، وخوفه أن يجرى عليها ما جرى فى أيام أبيه الملك الكامل محمد . كما أن احد المحاربين الصليبيين ويدعى جان دى بومون – وكان شاهد عيان للحملة – ذكر فى خطاب له حول الاستيلاء على دمياط أن الجيش الصليبي أبحر من قبرص ميمما شطر مصر بقصد محاصرة دمياط واحتلالها (4) ، ثم عهد الى طائفة بنى كنانة (5) ، وهم قوم بالشجاعة والإقدام ، بحماية المدينة من الداخل والدفاع عنها ضد غائلة المعتدين . بعد ذلك أصدر السلطان أمره من أشموم طنح الى نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبى على بإعداد قطع الأسطول من صناعة مصر وبملاها بالعدد والمقاتلة ، إذ لم يكن يخفى عليه أهمية القوة البحرية المصرية فى دفع أية إغارة على مصر تأتيها من وراء البحار حيث تمتد شواطئها مسافة أميال طويلة فى البحر المتوسط (6) . فشرع الحسام فى تجهيز السفن ، وأرسلها الى دمياط شينا بعد شئ . ثم أوفد السلطان الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ مقدم العساكر على رأس جيش كبير الى البر الغربى لدمياط (1) ، حتى يكون فى مقابلة الصليبيين عند وصولهم الى الشاطئ المصرى ، ليحول بينهم وبين النزول الى ارض مصر (2) .

لذلك كان كل من الاطراف المتنازعة من المصريين والصليبيين يتأهب للمعركة المنتظرة . فبينما كان الملك الصالح نجم الدين أيوب يعد العدة لملاقاة الأعداء ودفعهم عن بلاده بتحصينه دمياط التى كان يتوقع هجومهم عليها ، كان الملك لويس التاسع وجيشه يتأهبون للرحيل عن جزيرة قبرص للتحرك صوب الشاطئ المصرى أملين احتلال الديار المصرية حتى يسهل عليهم غزو البيت المقدس الهدف الأصلي لحملتهم وقد أمضى الجيش الصليبي فى قبرص فترة الخريف والشتاء وجانباً من الربيع (سبتمبر) 1248 – مايو 1249 م) . وأخيراً بعد أن تم إعداد كل شئ عقد الملك الفرنسى مجلساً من البارونات وقواد الجيش للتشاور فى أمر الرحيل (3) .

وفى يوم الخميس 13 مايو 1249 م/28 محرم 647هـ أقلعت الحملة من ميناء النمسون ميممة شطر مصر فى أسطول ضخم من الشوانى والبطس والمسطحات الحربية التى تقرب من 1800 (4) قطعة ما بين كبيرة وصغيرة تحمل نحو 50000 مقاتل من مشاة وفرسان ، ومعهم عدتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم .

ذلك الحين اضمحلت اشموم طنح وزال ما كان فيها من آثار المدينة والعمران . وأصبحت اليوم قرية عادية من قرى مركز دكرنس بمدينة الدقهلية . راجع النجوم الزاهرة ج 6 ص 328 حاشية 1 .

(2) يقول ابن ابن واصل (مفرج الكروب ج 2 ص 355 ب) أن نزول الصالح أيوب باشموم طنح كان فى 3 صفر 647 هـ ، بينما يذكر المقرئى (الخطط ج ذ ص 219 ، السلوك ج 1 قسم 2 ص 333) أن ذلك كان فى المحرم 647 هـ / ابريل 1249م . والارجح ، رواية ابن واصل الذى عاصر احداث هذه الحملة ، وكان شاهد عيان لجانب كبير من احداثها . (3) ابن واصل:المصدر السابق، ج 2 ص 355 .

Jean de Beaumont, p. 389.

(5) من الجدير بالذكر أنه لا توجد فى مصادر هذا العصر فرقة فى الجيش الايوبى تعرف ببنى كنانة أو الكنانية أو الكنانيين ، إذ كان أمراء البيت الايوبى يسمون فرقتهم عادة بأسمائهم ، فالكاملية مثلاً تنتسب الى الكامل محمد ، والعاذلية الى العادل الصغير ، والصالحية الى الصالح أيوب وهكذا . ولعل هذه الطائفة هى إحدى القبائل العربية التى استقرت بمصر من بقايا العرب الذين وفدوا إليها وشهدوا الفتح الاسلامى لها على يد عمرو بن العاص فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب . انظر المقرئى (البيان والاعراب ص 20 – 21) . هذا ، وقد ذكر المقرئى انه كانت توجد فى أيامه طائفتان فى مصر بهذا الاسم ، هما بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة .. بنى عدنان بصعيد مصر ، وبنو كنانة بن عذرة بن زيد اللات .. بن قضاة بالدقهلية والمرتاحية (نفس المصدر السابق ص 50 – 51 و 62 – 63) . والارجح أن الذين عهد إليهم الصالح أيوب بحماية دمياط هم كنانة عذرة الذين يقطنون بالدقهلية لقربها من دمياط ، هذا إذا أخذنا بالرأى القائل بأن بنى كنانة قبيلة عربية . جوزيف نسيم:المرجع السابق،حاشية5،ص82-83.

Joinville, op.cit,197.

(2) ابن واصل :المصدر السابق، ج 2 ص 355 – 356 .

Joinville ,op.cit,p.201.

(4) اختلف مؤرخو الفرنج (الصليبيين) فى تقدير عدد السفن الصليبية . فذكر جوانفيل أنها كانت تتكون من 1800 قطعة . راجع Joinville ,Ibid,p.201. بينما ذكر جى دى ميلان أنها بلغت 1500 قطعة عندما أصبح الفرنج قبالة دمياط غير تلك إلى شتتها الرياح التى تقدر ب 150 سفينة راجع : Guy,A knight,p.34-40. أما جان دى بومون فيذكر أن عددها كان

ويصور لنا جوانفيل الحملة عند إبحارها تصويراً رائعاً ، فالبحر قد كسسته السفن لكثرتها ، حتى انه لم يعد يرى سوى الساريات وهي تعلق تهبط فوق سطح الماء . ولكن رياحا عاصفة اعترضتها في طريقها فشنت شملها حتى انه لم يبق مع الملك عند وصوله الى الساحل المصرى من فرسانه البالغ عددهم 2800 أكثر من 700 فارس ، أما الأغلبية فقد دفعتهم الرياح دفعا في الاتجاه الشمالى الشرقى صوب عكا وشواطئ الشام ، ولم يتمكنوا من إدراك الملك إلا بعد وقت طويل (5) . وبعد أن سكنت العاصفة تابعت الحملة رحلتها حتى وصلت فى الساعة الثانية من نهار الجمعة 4 يونيو 1249م (1) / 20 صفر 647 هـ الى الفرع الشرقى للنيل ، وأرست بالبر الغربى تجاه دمياط .

وكان هذا البر الغربى يسمى فى المراجع العربية "بحيرة دمياط" (2) أو "الجزيرة" (3) ، وهي تسمية مجازية لأن مياه البحر الأبيض تحيط به شمالا ، ومياه النيل تحيط به شرقا ، كما كان يسمى أيضا "جيزة دمياط" (4)

ويعلق أحد المؤرخين المحدثين على ذلك بقوله أنه لم تذكر الأصول المعاصرة للحملة شيئا عن أسباب توجه لويس التاسع إلى دمياط . إلا أننا نستطيع أن نعلل ذلك بما كان لهذه المدينة حينذاك من أهمية كبيرة . فالواقع أن مركز دمياط الساحلى بين مصب فرع الدلتا الشرقى وساحل البحر الأبيض المتوسط جعل منها سوقا تجارية دولية تنتقل إليها بضائع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر والنيل – تلك البضائع التى تحملها السفن فى البحر المتوسط إلى سواحل الشام وآسيا الصغرى واليونان ومنها تنتقل إلى الغرب . وكانت هذه التجارة تدر على سلطان مصر أرباحا طائلة (5) .

الخاتمة

وبعد دراسة هذا البحث يمكن إستخلاص بعد النتائج حول هذه الدراسة وهي:

- بقاء الملك لويس التاسع فى جزيرة قبرص فى الفترة من 12 أغسطس 1248م _ 22 مايو 1249م / 11 جمادى الاولى 646هـ _ 7 صفر 647هـ وهي فترة الثمانية أشهر وعشرة أيام التى قضاها الملك الفرنسى فى جزيرة قبرص كان من أسباب فشل الحملة الصليبية السابعة خاصة أنه قد إستنفذ الكثير من المون التى جلبها معه من فرنسا وإضطر لشراء مون أخرى مما خسر معها أيضا الكثير من المال.

- أن الدبلوماسية الفرنسية للملك لويس التاسع فى قبرص قد إنحصرت فى ثلاثة أمور وهي:

ينيف على 120 من بينها أكثر من 80 سفينة من الحجم الصغير . راجع . Jean de Beaumont, 389 , وليس من المعقول أن تكفى 120 سفينة أو حتى ضعف هذا العدد لنقل ما يقرب من 50000 مقاتل ومعهم عدتهم وعتادهم . وقد أخذنا برواية جوانفيل لأنه كان شاهد عيان للحملة ، ومؤرخا عرف بالدقة والصدق فيما يكتب ، ثم أن تقدير جان دى ميلان – الذى اشترك فى الحملة هو الآخر – قريب مما ذكره مؤرخنا . ويؤيد جوانفيل كثير من المؤرخين المحدثين . جوزيف نسيم: المرجع السابق، حاشية 3، ص 87.

Joinville ,op.cit,p.201.

(1) إختلف المؤرخون حول تاريخ وصول الحملة الصليبية السابعة إلى البر الغربى لدمياط : فقد ذكر المقرئى فى كتابيه : الخط ج 1 ص 219 والسلوك ج 1 قسم 2 ص 333 ، والعينى فى عقد الجمان، ص 301 ، – أنهم وصلوا يوم الجمعة 20 صفر 647 هـ الذى يوافق يوم 4 يونيو 1249 م . ويتفق معهم روثلان (روثلان: المصدر السابق، ص 143-144) . انظر . ويمكن القول أن كلا من جوانفيل . Joinville ,Ibid,p.201. وابن واصل (مفرج الكروب ج 2 ص 356) قد اخطأ فى جعل الوصول يوم الخميس وليس يوم الجمعة .

(2) ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2 ، ص 356 .

(3) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج 6 ، ص 330.

الجزيرة أو الجيزة ، وهي الناحية أو جانب الوادى ولعل تلك التسمية راجعة إلى وقوع الجهات المسماة بهذا الاسم عند مجاز النهر. وكانت جيزة دمياط تقع على الشاطئ الغربى للنيل تجاه مدينة دمياط وعرفت بعد ذلك باسم منية سنان الدولة وسميت باسم السنانية . على مبارك :الخطط التوفيقية، الجزء الحادى عشر ، الطبعة الثانية ، عن طبعة بولاق 1305 هـ ، مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية العامة للتراث ، القاهرة ، 1994 ، ص 91.

(4) المقرئى : السلوك ج 1، قسم 2 ، ص 333.

(5) جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق، ص 91.

- مقابلة مرقس وداود كمبعوثين من قبل إيلخان المغول الجهادى للملك لويس التاسع وحسن مقابلة الملك الفرنسى لهم رغم سوء تقديره لموقف المغول وإرساله سفراء هم أندريه لونج جيميو وأخيه لخان المغول والهدايا الثمينة التى لم تحقق ما ذهب من أجله بسبب وفاة الخان جيوك وإعتبار أرملته أن هدايا الملك ما هى إلا جزية يدفعها التابع للسيد.

- سفارة الراهب الفرنسيسكانى وليم روبروك ومعه بارثلميو أف كريمونا الرسمية من قبل الملك لويس التاسع إلى المغول وهداياه إلى خان المغول مونكو ورد الخان وإعتباره الهدايا جزية وان الملك الفرنسى يدفع أذاه مما جعل الملك الفرنسى يندم على إرسال تلك السفارات للتتار على حد قول المؤرخ جوانفيل.

- يتضح من رواية روثلان أن التحالف العسكرى كان الغرض الأساسى للملك لويس التاسع مع المغول خاصة أنه كان فى حاجة إلى من يساعده فى حملته إلى الشرق وفى الإستيلاء على بيت المقدس كما إنفرد روثلان بذكر أن الرحلة صوب قبرص من فرنسا قد إستغرقت إثنتين وعشرين يوماً.

- وصول الإمبراطورة مارى زوجة بلدوين الثانى الإمبراطور اللاتينى بالقسطنطينية وابنة جان دى برين صاحب ملم مملكة بيت المقدس الإسمية فى عكا لطلب مساعدة الملك لويس التاسع ضد الإمبراطورية فى نيقية ورد لويس التاسع بدبلوماسية دون وعد بالمساعدة . ولعل موقف الملك الفرنسى من هذا الأمر كان يتفق وطبيعة الأحداث خاصة وأنه ذاهب لحملة صليبية لايعرف نتائجها بعد وهو فى حاجة إلى كل جندي صليبي فرنسى أو متطوع أو غير ذلك يساعده فى معركته التى يريد لها أن تكتمل على أكمل وجه , لذلك ليس من المعقول أن يمنح الملك الإذن بالسفر إلى بعض جنوده وفرسانه مع الإمبراطورة وهو الأمر الذى قد يضعف موقفه الحربى فى تلك الفترة هذا من ناحية , وكذلك ليس من المعقول أن يؤيد الملك الفرنسى الذى إستشهد بالتقوى والورع فى تلك الفترة الصراع المسيحى المسيحى فى تلك الفترة لانه بناء على وجهة نظره التى يمكن أن نستنتجها أن السيوف أحرى أن توجه إلى المسلمين أولاً من ناحية ثانية , وكذلك رحيل بعض حنود الحملة من قبرص إلى أرمينيا للمشاركة فى القتال والأسلاب فى الصراع بين السلاجقة والارمن غير أنهم لم يعودوا مرة أخرى كما يذكر جوانفيل هذا من ناحية ثالثة , فإذا أضفنا إلى ذلك قلة الأموال التى مع الملك والتى لا تكفى الحملة كان من الطبيعى أن يكتفى الملك بالردود الدبلوماسية والوعود بالمساعدة والدليل على قلة الأموال أن جوانفيل نفسه حينما وصل إلى جزيرة قبرص لم يكن معه من الألف دينار التى هى دخل أرضه سوى مائتين وأربعين دينار هى التى تبقت بعد دفع مصاريف إستئجار السفن لذلك وضع الملك الفرنسى فى خزانه جوانفيل ثمانى مائة دينار لكى يستطيع أن يكفل تسعة فرسان وإثنين من حملة السناجق هذا من ناحية أخرى.

قائمة باسماء مصادر ومراجع البحث

أولاً:المصادر الأجنبية:

Guy., A knight to B. of Charters:

Rolls Series, M. Paris Chron. Maj, and VI, latin.Translated in Dana C. Munro:
Letters of the Crusaders, vol.1:4, Philadelphia, 1986.

Guillaume de Nangis:

CF, Michaud, Bib. Des Crois, Paris, 1829.

Jean de Baumont,

CF, Michaud, Bib. Des Crois, paris,1829.

Joinville:

The life of Saint Louis, translated with an Introduction by M.R.B Shaw Penguin
Books, London, 1963.

Mathew Paris:

CF, Michaud, Bib. Des Crois, Paris, 1829.

ثانياً:المصادر العربية:

ابن أيبك ت 722/هـ1331م (أبو بكر بن عبد الله):

كنز الدرر وجامع الغرر , 9 أجزاء , دار الكتب المصرية , دون تاريخ.

ابن تغرى بردى الأتابكى (جمال الدين أبو المحاسن ت 874/هـ1471م):

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة , الجزء السادس , طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب مع إستدراكات وفهارس جامعة , القاهرة , دون تاريخ.

إبن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي ت 808/1404م):

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر , الجزء الخامس , مؤسسة جمال للطباعة , بيروت , دون تاريخ.

إبن واصل (جمال الدين محمد بن سليم ت 697/1298م) :

- مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب , خمسة أجزاء , تحقيق د. جمال الدين الشيبان , طبع دار إحياء التراث القديم , الإسكندرية , 1957.

- التاريخ الصالحى , الموسوعة الشاملة , الجزء الحادى والعشرين , تحقيق د. سهيل زكار , دمشق , 1995.

إبن العبرى (غريغوريوس الملقى ت 685/1286م):

تاريخ مختصر الدول , دار الكتاب المصرى , القاهرة , دون تاريخ.

العينى (بدر الدين محمود ت 855 / 1451م) :

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان , عصر سلاطين المماليك , حوادث وتراجم (648-664/1250-1265م) , تحقيق د. محمد محمد أمين , مركز تحقيق التراث , القاهرة , 1987.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر ت 845/1442م) :

- السلوك لمعرفة دول الملوك , الجزء الأول , القسم الثانى , صححه ووضع حواشيه د. محمد مصطفى زيادة , الطبعة الأولى , مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة , القاهرة , 1957.

- المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار , المجلد الأول , تحقيق د. أيمن فؤاد سيد , مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى , لندن , 2002.

- المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار , المعروف بالخطط المقريزية , الجزء الثالث والأخير , تحقيق د. محمد زينهم ومديحة الشراوى , مكتبة مدبولى , القاهرة , 1998.

ثالثا:المصادر المترجمة إلى اللغة العربية:

جوانفيل ت 1318م / 717هـ :

القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام , ترجمة وتعليق , الدكتور حسن حبشى , الطبعة الأولى , دار المعارف بمصر , القاهرة , 1968.

روثلان إنتهى تاريخه فى عام 1261م / 660هـ :

تتمة وليم الصورى والمنسوب خطأ إلى روثلان (1261-1229م) , ترجمة وتحليل وتعليق أ.د أسامة زكى زيد , الطبعة الثانية , دار المصطفى للطباعة , طنطا , 2001.

متى الباريسى ت 1273م/672هـ :

التاريخ الكبير , الموسوعة الشاملة , ترجمة الدكتور سهيل زكار , الجزء 47,48 , دار الفكر دمشق , 2001.

رابعا:المراجع الأجنبية:

Bray,

The Good st. Louis and his Times,London,1870.

Charles Oman:

K.B.E,M.P, A History of Art of War in The Middle ages, volume I,A.D 378-1278, Methuen and Co ,London,1924.

Ludlow,J.M,

The Age of The Crusades,Edinburgh,1897.

René Grousset :

Histoire des Croisades et du Royaume Frnc de Jerusalem, VII, Paris, 1995.

خامسا:المراجع العربية:

جوزيف نسيم يوسف :

العدوان الصليبي على مصر , مؤسسة شباب الجامعة , الإسكندرية , 1984.

على مبارك :

الخطط التوفيقية , الجزء الحادى عشر , الطبعة الثانية , عن طبعة بولاق 1305هـ , مركز تحقيق التراث ,
الهيئة المصرية العامة للتراث , القاهرة , 1994 .

سادسا:المراجع المترجمة إلى اللغة العربية:

فالتر هنتس:

المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها فى النظام المترى , ترجمة د.كامل العسيلي , الطبعة الثانية , منشورات
الجامعة الأردنية , عمان , 1970 .

ميشيل بالار:

الحملات الصليبية والشرق اللاتينى من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر , ترجمة بشير السباعى ,
الطبعة الأولى , دار عين , القاهرة , 2003 .